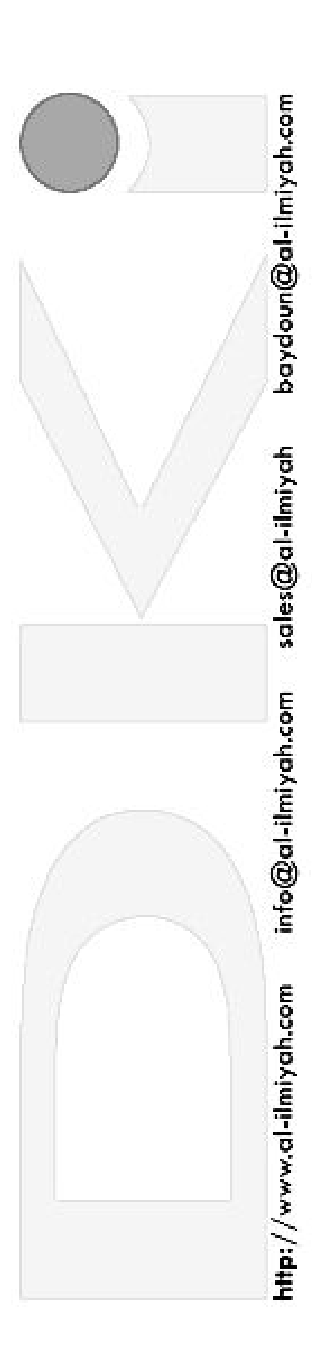
مدخل إلى تاريخ المغرب

تأليف

العلامة الأديب

عبد الله كنون الحسني





الكتاب : مدخل إلى تاريخ المغرب

Title : MADHAL ILĀ TĀRĪH AL-MAĠRIB

التصنيف : تاريخ

Classification: History

المؤلف : العلامة الأديب عبد الله كَنّون الحسني

Author : Abdellah Guennoun Al-Hassani

الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت

Publisher : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

Pages	168	عدد الصفحات
Size	14 x 20 cm	قياس الصفحات
Year	2017 A.D. - 1438H.	سنة الطباعة
Printed in Lebanon		بلد الطباعة لبنان

الطبعة : الأولى عن دار الكتب العلمية

Edition : 1st from Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

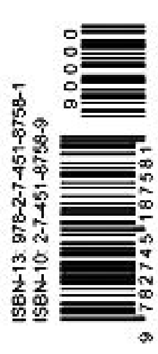
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

طبع بإذن خاص
من مؤسسة عبد الله كنّون الحسني
للثقافة والبحث العلمي

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

لا يحسب أحد أننا نقدم له تاريخاً للمغرب، فما مر بخلدنا أن نحاول هذه المحاولة الجريئة ونحن نعلم ما يكتنفها من صعوبات، ونرى ما يعترض في طريقها من عقبات. ولكن هذا مدخل لتاريخ المغرب رأينا أنفسنا مضطرين لكتابته بسبب ما نعالج من تعليم النشء على أصول التربية الوطنية الحديثة حيث لم نجد ما نسد به هذا الخصاص في برنامج الدراسة الابتدائية في مدرستنا التي أسسناها في فاتح قعدة عام 1355.

وذلك إن الموجود من كتب تاريخ المغرب إما مؤلفات ضخمة وعلى الأسلوب القديم لا تصلح لهذا الغرض، وأما كتب مسلسلة على حسب السنوات من غير إعادة ما تضمَّنته الأجزاء السابقة في الأجزاء اللاحقة فالتلميذ يبقى مطالباً باستحضار ما في الجزء الأول والثاني والثالث إلى آخره ليمكنه أن يجوز الامتحان في السنة النهائية. وفضلاً عما في ذلك من التعب فإنه مخالف لبرنامجنا الذي يأتي تاريخ المغرب فيه آخراً في السنة النهائية، وأما السنوات الأخرى

فيدرس فيها التاريخ العام.

وعلى هذا فالمدخل تاريخ مدرسي ابتدائي معمول لقسم الشهادة الابتدائية في مدرسة خاصة. نعم لا يمنع أن يستعمل في غيرها من المدارس التي وافق برنامجها، خصوصاً وقد اشتمل على مميزات قلَّ أن توجد في غيره.

1) منها أنه يبتدئ بتاريخ ما قبل الإسلام خلاف الكتب الموجودة التي تبتدئ كلها بتاريخ الفتح الإسلامي.

2) ومنها أنه إنما يؤرخ عهود المجد لكل دولة ويجتنب ذكر الفتن والاضطرابات الداخلية التي تتمثل صحفاً سوداً في نظر التلاميذ الصغار.

3) ومنها أنه يعني كثيراً بتصوير الحالة الاجتماعية والأدبية في كل عصر من العصور، ولا يقتصر على سرد تاريخ الملوك مجرداً عن النظر في حالة الشعب الذي هو المؤرَّخ في الحقيقة لا الملوك.

4) ومنها أنه يحقق في بعض الوقائع التاريخية ويوجه نظر التلميذ إلى ذلك التحقيق ليلاً يميل مع من مالوا عن الصواب في ذلك لغفلتهم أو لعدم تهمُّمهم بالبحث الموصل إلى المطلوب، وذلك كما في مسألة خصومة المنصور الموحدي وصلاح الدين الأيوبي وغيرهما.

5) ومنها الاستعانة بالصور والخرائط التخطيطية على توضيح الآثار التاريخية والمعلومات الجغرافية إلى غير ذلك.

ومع هذا فإنّا نكرر القول بأنه تاريخ مدرسي ابتدائي خاص فمن

شاء فليستعمله من غير توهم أننا عملناه ليُفرض على أحد، ومن شاء فليستفد منه مع التفضل بذكر مصدر الفائدة حرصاً على التعاون الأدبي المنشود، والسلام على كل من وقف عليه من الزملاء الأفاضل.

المؤلف

ـ الجغرافية ـ

المغرب وطننا العزيز يقع في غرب شمال إفريقيا بين الدرجة 28 و36 عرضاً من جهة الشمال، والدرجة 8 و13 طولاً من الجهة الغربية، ويحد شمالاً بالبحر الأبيض المتوسط، وشرقاً ببلاد الجزائر، وغرباً بالمحيط الأطلسي، وجنوباً بالصحراء الكبرى.

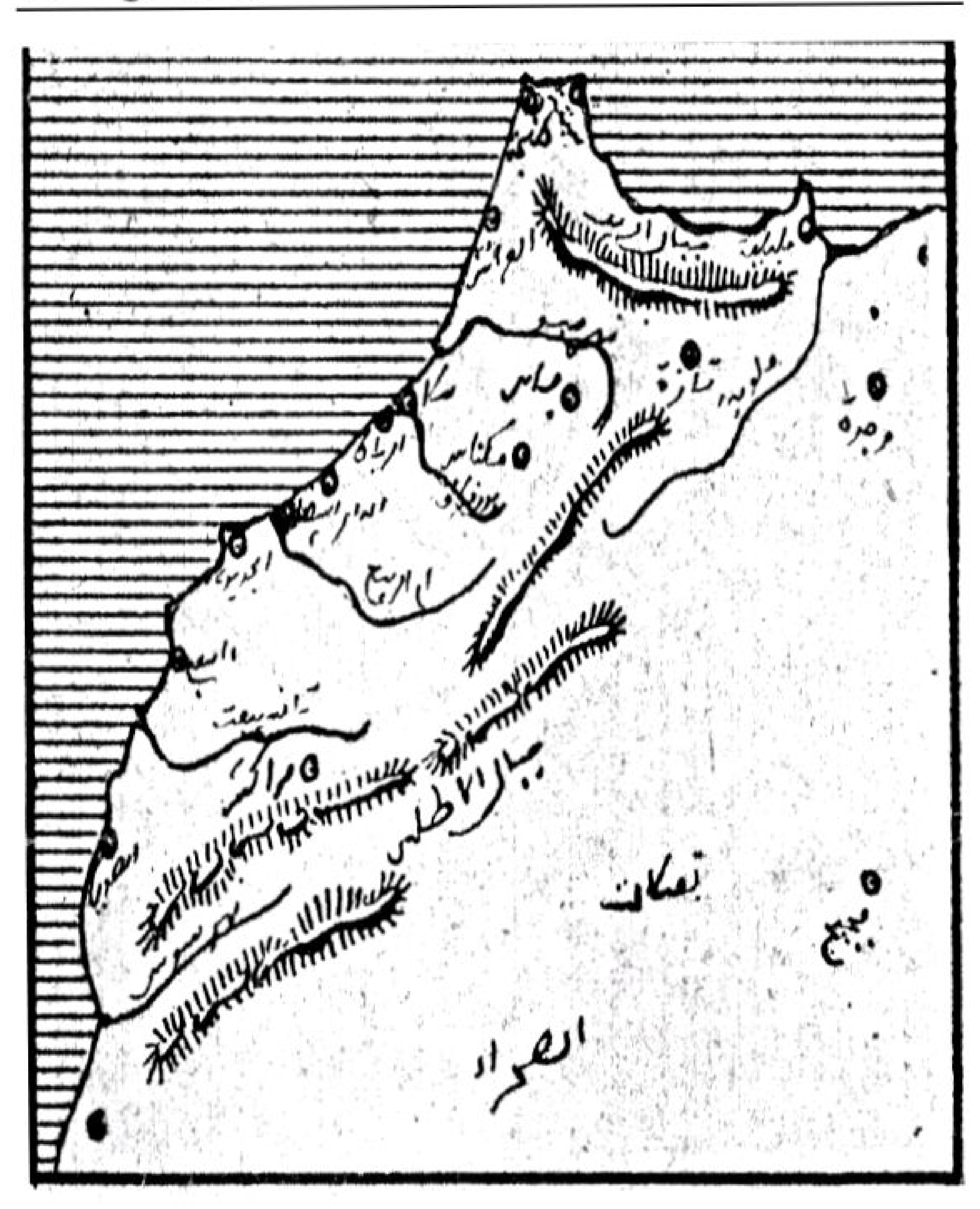
مساحته: 450,000 كيلومتراً مربعاً تقريباً، وعدد أهله يجاوز 8 ملايين.

عواصمه: فاس ومراكش في القديم والرباط الآن.

وموانئه: طنجة، وأصيلا والعرائش، والقنيطرة، والرباط، وسلا، والدار البيضاء، والجديدة، وآسفي، والصويرة، وأكادير، وكلها على المحيط الأطلسي. وتطوان، وسبتة، ومليلية على البحر الأبيض المتوسط، إلا أن الأخيرتين هما من أملاك إسبانيا اليوم.

والمغرب جزءاً لا يتجزأ من إفريقيا الشمالية التي تجمعها وحدة الجنس واللغة والدين، فضلاً عن وحدة الجيولوجيا التي يقوم الأطلس الجبار حارساً عليها منذ دخول الأرض، وكان العرب يسمون هذه البلاد بالمغرب الأدنى وهو تونس سمي بذلك لأنه أقرب إلى بلاد العرب، والمغرب الأوسط وهو الجزائر، والمغرب الأقصى لأنه أبعد هذه الممالك عن بلاد العرب.

أما جغرافيو اليوم فيقسمونها إلى أربعة أقطار، طرابلس الغرب وتونس والجزائر والمغرب، وبذلك غلب على كل قطر اسمه الخاص وبقي المغرب حاملاً للاسم الجامع، على أن بعضهم يسمي المغرب باسم عاصمته الجنوبية مراكش وهذا الاسم ليس بمعروف في داخلية البلاد.



خريطة المغرب في الوقت الحاضر

أصول السكان

سكان المغرب على خمس طبقات: البربر وهم السكان الأصليون والعرب الفاتحون، ثم الطارئون بعد ذلك في أوقات مختلفة زمراً أو أفراداً والأندلسيون وهم مهاجرة الأندلس الذين جلوا عنها بعد استيلاء الإسبان عليها، والزنوج وغالبهم قدِم المغرب على عهد المنصور الذهبي بعد فتحه السودان، والسنكال، واليهود وهم نحو المائة ألف أكثرهم ورد المغرب بعد نفيهم من إسبانيا ودخلوا في ذمة المسلمين.

البربر

وقد اختلف في أصل البربر اختلافاً كثيراً، واسمهم دليل على جهل أصلهم لأنه كان يطلق على الأقوام الذين لا تعرف لغتهم.

ويقول ابن خلدون إن إفريقيش لما وصل إلى هذه البلاد خاطب أهلها بقوله ما هذه البربرة؟ على أن هذا الاسم موجود في غير المغرب كالبربرة في النيل وفي البحر الأحمر، وأهل الأطلس لا يسمون أنفسهم بهذا الاسم، وإنما يدعون أنفسهم الأمازيغ، ومعناها الأحرار، ولغتهم يعبرون عنها بتمازيغت، وهذا لفظ قديم يوجد عند الكتَّاب الأوائل كهذا (مازيست) أو ما يقارب ذلك.

من المعلوم أن أكثرية سكان المغرب من البربر. ولكن مع ذلك فإن أصولهم لا تزال مجهولة، ويصعب على الإنسان أن يربطهم

بجنس من الأجناس الذين سكنوا إفريقيا، والظاهر من التحقيق العلمي أننا بإزاء عناصر مختلفة لا يمكن تحديدها، ولكن الأمر الغريب الذي يستلفت الأنظار بالخصوص، هو اتفاق هذه العناصر في كثير من الخصائص وطبيعة التكوين مع العنصر العربي. ولذلك فالواجب أن لا يتعب الإنسان نفسه في التمييز بين أفراد العنصرين وإن فعل فإن كثيراً من أتعابه تذهب سدى.

ومن ثم قيل أن أصل البربر من العرب. وعليه كثير من المؤرخين والبحَّاث المسلمين، إلا أن ابن خلدون زيف هذا القول وزيف أيضاً القول بأنهم بقية من قوم جالوت، وقال: الحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح عليه السَّلام.

وعلماء الأنتربولوجيا يقولون أن غالب البربر هم من الشخص ذي الجمجمة الطويلة، أسود الشعر والعين معاً، وهو نفس الموجود في أوروبا الوسطى وإسبانيا وإيطاليا والجنوب الغربي من فرنسا، وهناك شخص آخر كثير الشبه بأهل مصر كما ثبت من الحفريات ومن مقارنته بالفلاحين المصريين الحاليين وهو طويل القامة دقيق الملامح، والظاهر أن أصله من الشرق، كما أن هناك جنساً آخر أشقر اللون أزرق العين يعيش بين هؤلاء الدهم والسمر وهو بدون شك ليس منهم، ويذكرنا بالأصل الجرماني والنورماندي، وهذا هو الموجود في جبال الريف.

هذا ولا يزال العلماء يعثرون على أجناس جديدة، وهذا

الاختلاط فيه قديم وهو سبب اختلاف أقوال الكتَّاب فيه، وعلى كل فإن شمال إفريقيا والمغرب بالخصوص طريق رئيسية مرَّ بها كثير من الرَّحالة والفاتحين من مختلف الأجناس من أوروبا وآسيا فلا يمكننا أن نفرض جنساً ونرفض آخر في تعيين أصل السكان البربر بالمغرب، وهذا النظر العلمي لا يعكِّر علينا في اعتبار البلاد المغربية بلاداً عربية، لأن الواقع أنه بعد الفتح العربي وانتشار الإسلام استعرب البربر وتأكدت الصلة بينهم وبين العرب حتى لم يبق فارق ما بين الجنسين كما تقدم.

واللغة البربرية على اختلاف لهجاتها كثيرة الشبه باللغات السامية، ولا سيما العربية، وإن كان العلماء يجعلونها من أصل مخالف، وهذا دليل آخر على مزيد التشابه والاتصال الشديدين بين العنصرين.

والآن وقد أصبحت البربرية ممزوجة بكثير من الألفاظ العربية، وصار كثير من البربر يتكلمون البربرية ويمزجونها بالعربية، فضلاً عن الذين نسوا لغتهم بالمرة وصاروا لا يعرفون إلا العربية كبعض العرب الذين صاروا لا يتكلمون إلا البربرية.

فهل ينتشر التعليم بادية وحاضرة حتى يقضي على جميع هذه اللهجات المختلفة وتبقى العربية وحدها لغة التخاطب في المغرب؟

المغرب في عهد الفنيقيين

منذ القرن الثاني عشر (ق.م) جاء الفنيقيون وهم من الكنعانيين

سكان سوريا إلى بلاد المغرب فأسسوا مراكز للتجارة على شواطئ البحر ولا سيما بالجزر والربى الساحلية التي يسهل الدفاع عنها إذ كانوا أمة تجارية لا شأن لها بالحروب، وكانت التجارة بينهم وبين المغاربة بطريق التبادل فيأخذون منهم الصوف والجلد والعاج وريش النعام والماشية ويدفعون لهم الثياب والأسلحة والخمور وأواني الزجاج والفخار.

ومنذ القرن الثامن (ق.م) نشرت قرطاجنة وهي المدينة العظيمة التي أسسها الفنيقيون على الخليج التونسي نفوذها الأدبي على المغرب وحاربت اليونان في البحر الأبيض المتوسط وانتصرت عليهم وبذلك صارت دولة بحرية، ولكن نفوذها الفعلي في المغرب لم يجاوز مع ذلك السواحل، أما الدواخل فقد كانت تحت حكم أمراء من أهل البلاد وفي الغالب كانت العلاقات بين الطرفين ودِّيّة بل كانت هناك روابط عائلية بين الأمراء الأهالي وأشراف القرطاجنيين.

وتأثر الأهالي بالقرطاجنيين تأثراً بليغاً في الحضارة والعمران وكان مما أخذوه عنهم فن الغراسة واستخراج المعادن وعصر الزيتون والخمر وغير ذلك.

ولم تكن هناك حروب مهمة بين البربر والقرطاجنيين لأن هؤلاء لم يكونوا يتدخلون في شؤون الأهالي ولا يستثيرون غضبهم بفعل أو قول، وإنما كان الجند يثور في بعض الأحيان لأشياء خاصة وكان الرومان يحرِّضون البربر على القرطاجنيين ويجيّشونهم ضدهم رغبة

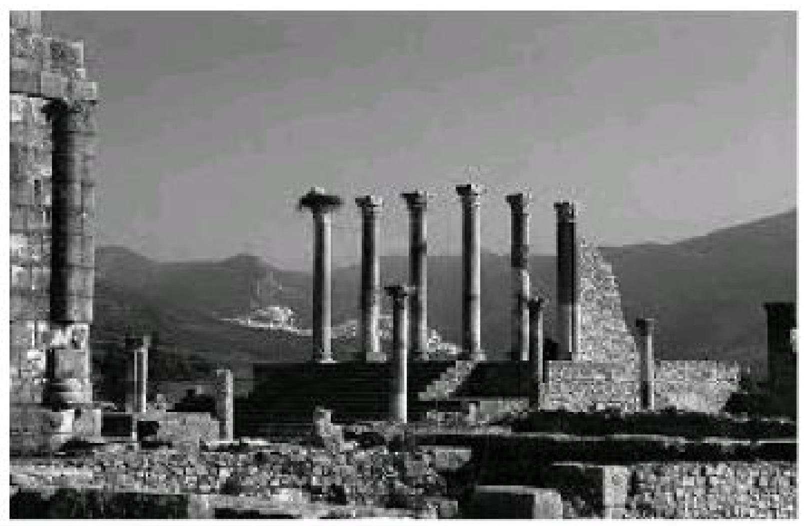
في القضاء عليهم والحلول محلهم في استغلال خيرات البلاد ولم يزل ذلك دأبهم حتى بلغوا إلى مرادهم من ذلك.

الرومان في المغرب

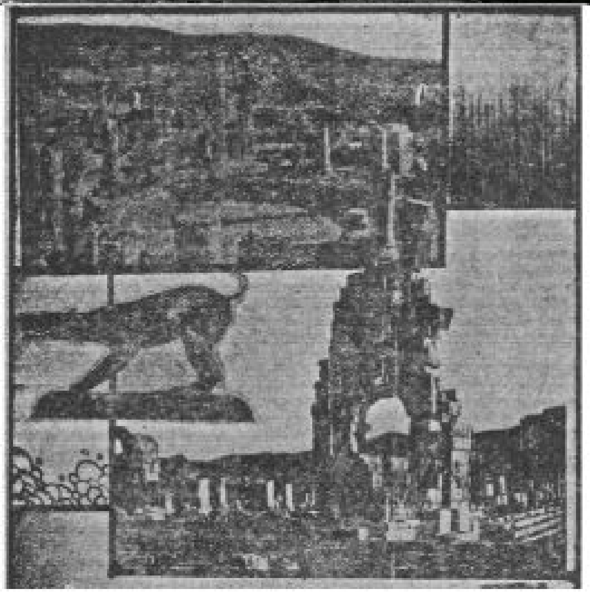
في سنة 146 (ق.م) سقطت قرطاجنة في يد الرومان وسارت روما مع الأهالي بعكس سيرة قرطاجنة في إذلالهم واستغلال بلادهم وكانت تسمي الملوك الأهالي بالملوك الأرقاء، أما الشعب فلم يكن أفراده سوى عبيد لسادات روما المستعمرين.

ولم يستولِ الرومان على البربر إستيلاءً حقيقيًا إلا في عهد كلود قيصر سنة (42م) حيث قسموا الشمال الإفريقي إلى مقاطعات وجعلوا فيها حاميات من الجنود تحافظ على نفوذ الرومان وكان المغرب من بين هذه المقاطعات يحمل اسم موريطانية الغربية وإن لم يبلغ نفوذهم فيه ما بلغ في الجزائر وتونس، وكانت ليكسوس على أحد منعطفات وادي لكوس وطنجة أيضاً يحملان لقب المستعمرة الامبراطورية كما كان يقال لسلا: (سلا كلونيا) وفي نواحي مكناس كانت توجد مدينة (فيلوبلس) التي لا تزال مآثرها قرب زاوية مولاي إدريس وهي ذات مسافة واسعة ولا تزال بها مآثر الهيكل والتياترو وقوس النصر المشيَّد في القرن الثالث وأخيراً عثر فيها بدار سكني على كلب من نحاس مصنوع على شكل بديع.

وبالجملة فإن نفوذ الرومان كان منحصراً في الجهة الشمالية من







المنظران أعلاه يمثلان بعض الآثار الرومانية
في مدينة (فيلوبلس) والمنظر الأسفل
يمثل بعض أطلال البرج المسمى (أدمير كليوس)

المغرب ولم يجاوز سلا قط على مصب نهر (بورقراق) وكان أقصى نقطة خاضعة للنفوذ الروماني هو البرج الواقع على 23 كيلومتراً من سلا وهو المسمى: (إدمير كليوس) ومع هذا عثر على بعض المآثر الرومانية بالأطلس المتوسط، وقد يعني هذا أن الأهالي المغاربة كانوا تأثروا ببعض مظاهر الحضارة الرومانية، وعليه فيصعب تمييز ما يرجع من هذه الآثار للرومانيين أنفسهم وما يرجع للأهالي، ولكن هذه الآثار كلما توغلت في الجنوب كانت أخشن بسبب بعد هذه الجهة عن الاتصال بالرومان.

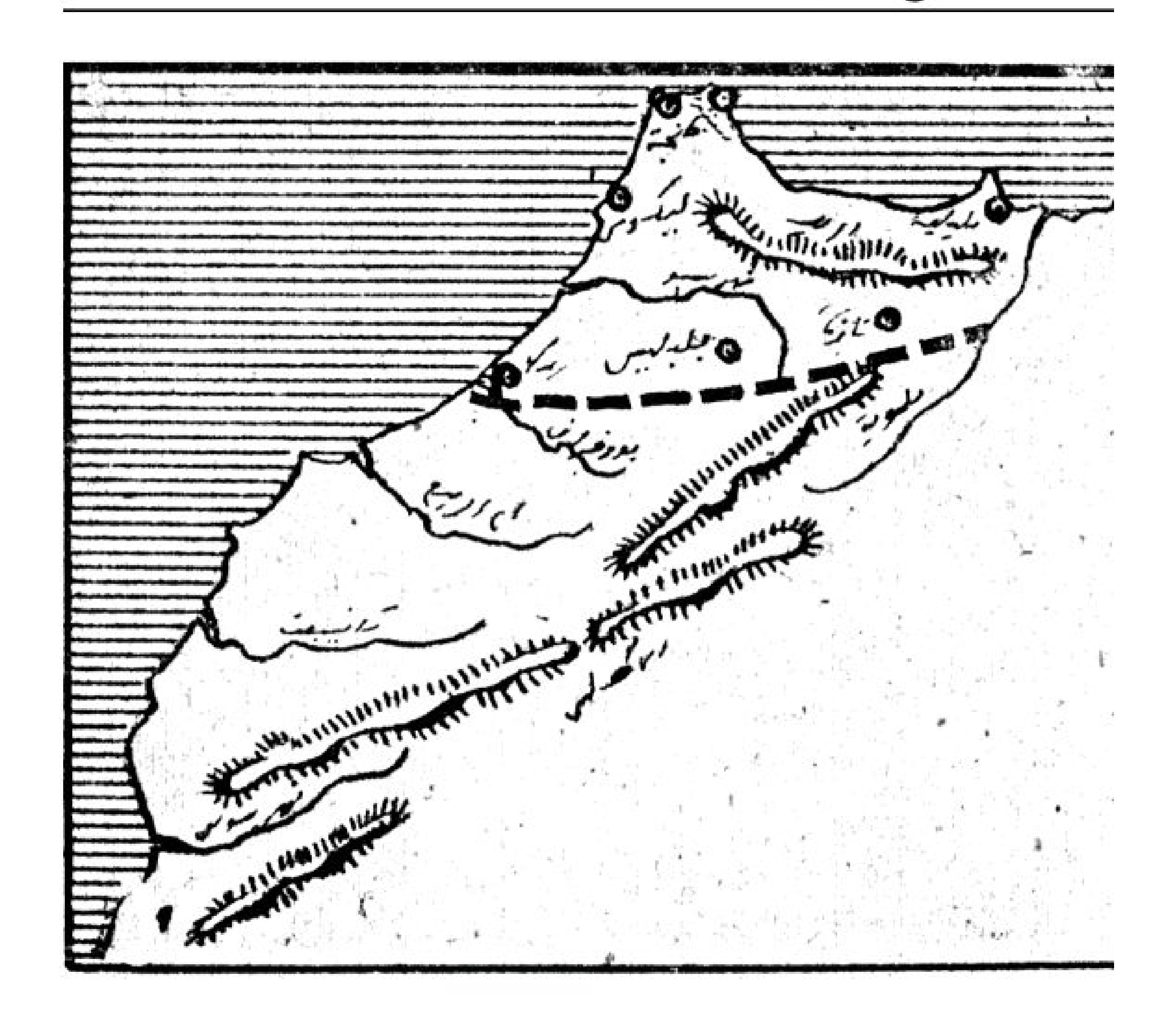
وكانت كل تجارة الرومان مع المغرب عن طريق إسبانيا، وكانت طنجة على رأس طريق المغرب، وأكثر ما يأخذون من المغرب القمح، والزيت، وبعض المواد الغذائية الأخرى والجلد والصوف والمواشي والخيل وبعض العقارات الطبية، وكانوا يضربون على المغرب الضرائب الفادحة ويطلبون منه الجند أيضاً وللفرسان المغاربة مقام خاص بين جنود الامبراطورية التي كانت ضاربة على نهري الرين والدانوب ومما يدلك على مزيد ما كان لهم من الاعتبار أن (ترجان) خلدهم معه في تمثال ترجان بعد حرب داسي.

ورغماً عن جميع وجوه الانتفاع التي كانت لروما في المغرب فإنها لم تكن تفكر في مصلحة الأهالي أصلاً، حتى أن موريطانيا الغربية لم تكن عندهم إلا مقاطعة مهملة غير داخلة في النظام النيابي بل الامبراطور يعين لها الوالي الذي ينوب عنه في الحكم العسكري والمدني ويشرع لها القوانين أيضاً.

وبسبب الظلم وجور القوانين والاستغلال الدائم فإن الأمر لم يستتب في المغرب قط حيث أن رؤساء الأهالي كانوا حاملين أعلام الثورة دائماً.

ولذلك كان لزاماً على روما أن تضع بالمغرب قوة عسكرية كافية، وقد كانت الجنود تصل في بعض الأحيان إلى عشرة آلاف وكانت سلا من الغرب وجبل زرهون من الشرق متصلين بسلسلة أبراج هي التي كانت تدفع غارة الأهالي.

ولكن لما أراد الله اضمحلال السيطرة الرومانية جعل ذلك على يدها فاعتنق الرومان الديانة المسيحية وتفرقوا فيها طرائق قددا حتى اقتتلوا واستعان بعضهم على بعض بالبربر الذين شفوا غليلهم من دماء أعدائهم، وأن الله يملي على الظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.



خريطة تمثل منطقة النفوذ الروماني بالمغرب

هجوم الوندال

في سنة 429م هجم الوندال على المغرب وهم قوم من البرابرة اكتسحوا أوروبا في القرن الرابع، واستقروا أخيراً ببلاد إسبانيا التي يقال فيها (واندلوسيا) نسبة إليهم وكان دخولهم إلى المغرب باتفاق مع الوالي العام الروماني الذي أراد الانتصار بهم على خصومه في روما، فخسر بذلك منصبه وفقدت روما إلى الآن إمبراطوريتها الإفريقية، وكان احتلال الوندال المغرب وسائر الشمال الإفريقي سهلا ميسورا من جهة أن دخولهم أولاً كان باستدعاء ممن بيده مقاليد الأمور.

ثم إن البربر كانوا يفتحون الطريق أمامهم، وربما أعانوهم انتقاماً من أعدائهم الرومان وتخلصاً من حكمهم الممقوت.

ولكن الوندال كانوا أمة وحشية فأكثروا من النهب والقتل وتخريب العمران فلم يستفد المغاربة منهم شيئاً إلا أنهم انتقموا لهم من أعدائهم الرومان شر انتقام.

الاحتلال البيزنطي

ثم في منتصف القرن السادس احتل روم بيزنطة أهل الامبراطورية الشرقية البلاد إذ أرسلوا قائدهم (بليزار) في أسطول ضخم فطرد الوندال وخضعت إفريقيا لحكم القياصرة ولكن نفوذهم في المغرب كان ضعيفاً، إذ لم يستولوا على غير طنجة وسبتة وعند الفتح الإسلامي لم يبق هناك إلا منطقة سبتة تحت قيادة الكونت جوليان الذي أعلن استقلاله، وسلمت بقية البلاد إلى أهلها، وقد عثر بجهات سوس على بعض مآثر بيزنطة ولكن هذا لا يدل على امتلاك البيزنطيين لهذه الجهات بل إن الفن السوسي كان مقلداً للبيزنطي فحسب، وكالوندال لم يؤثر البيزنطيون في الأهالي تأثيراً مذكوراً لا من حيث العلم ولا من حيث الحضارة بل إن عهدهم كان أظلم من عهد الوندال وقد وصل فيه التدمير والخراب إلى أقصى حد وكانت المسيحية قد انتشرت في البلاد بخلافها ونزاعها فلم يفتأ القتال مشتداً بين أتباعها وبينهم وبين الوثنيين.

على أن الأهالي لم يقبلوا كثيراً على اعتناق الدين المسيحي ومن اعتنقه منهم لم يتغلغل في نفسه خلافاً لما تعطيه كتابات الرهبان في ذلك العصر التي قد تغر الإنسان فيعلّق أهمية كبيرة على هذا الأمر.

وقد بقيت الحالة على ما ذكر من الفوضى إلى منتهى القرن السابع حيث سطع على البلاد نور من الشرق هو نور الإسلام فنسخ ذلك الظلام وأعاد الاطمئنان إلى النفوس وبسط على الأرض السلام.

ـ أسئلة ـ

1) أين يقع المغرب من قارة إفريقيا وفي أي درجة من درجات الطول والعرض؟

2) ماذا يجاور المغرب من الجهات الأربع؟

3) هل من المغرب ما هو ممتلك لدولة أجنبية؟

4) ما هي أقسام إفريقيا الشمالية اليوم؟

5) ما هي عناصر السكان بالمغرب؟

6) هل يرجع أصل البربر إلى جنس واحد معروف؟

7) لماذا يصعب التمييز بين العرب والبربر؟

8) بعد اختلاط العنصرين وامتزاجهم بالمصاهرة وتكيفهم بحسب عقيدة التوحيد والشريعة الإسلامية والثقافة العربية هل يقال أن في المغرب سلالات متعددة غير السلالة المغربية التي تكونت مع الأجيال من عناصر متماثلة في الخلق والمزاج؟

9) لهجات التخاطب البربرية هي البقية الباقية من عوامل التفريق، فبماذا يمكن القضاء عليها؟

10) هل بين البربر والفنيقيين تقارب في السلالة؟

11) هل اضطهد الفنيقيون البربر كالرومان؟

12) وازن بين العهد الفنيقي والعهد الروماني واذكر أيهما كان خيراً للبلاد؟

13) هل استفاد المغرب شيئاً من الاحتلال الوندالي والبيزنطي؟

14) ما وجه الشبه بين الجنسين؟

15) ما الذي أنقذ البلاد من الفوضى السياسية والاجتماعية التي كانت تتخبط فيها؟

الفتح الإسلامي

دخل العرب والإسلام إلى بلاد المغرب في خلافة يزيد بن معاوية إذ تم انضمام المغرب إلى ممالك الخلافة على يد عقبة بن نافع سنة: 62هـ وبقي المغرب الأقصى خاضعاً للخلفاء من بني أمية وبني العباس إلى أن دخله مولانا إدريس فأسس به الدولة الإدريسية، واقتطع المغرب عن سلطة الخلافة.

الدولة الإدريسية

كان المولى إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه من الزعماء العلويين الذين لا يفتئون مطالبين بحقهم في الخلافة، وكانوا يلقون من العباسيين كالأمويين من قبل اضطهاداً كبيراً. وعلى أثر موقعة دارت فيها الدائرة على دعاة العلويين تفرق كثير من أنصارها في البلاد ومنهم المولى إدريس الذي قاده إلى المغرب مولاه راشد البربري فحل به على الرحب والسعة من رؤساء البربر وزعمائهم الذين ملكوه عليهم وبايعوه على الموت دونه، وذلك سنة: 172هـ.

وكان أول من بايعه قبيلة أوربة ورئيسها إسحاق بن عبد الحميد

الذي أكرم ضيافة إدريس حين نزل عليه بمدينة وليلي (فيلو بوليس) قرب زرهون، وكانت هذه القبيلة ذات شوكة عظيمة وبأس شديد، ثم تتابع دخول القبائل في طاعته، فقام يغزو البلاد التي لا زالت لم تعتنق الإسلام أو لم يكن الإسلام تمركز فيها تمركزاً تامًّا، فدانت له سائر القبائل وقبلت دعوته جميع الناس، وما أن فرغ من المغرب حتى تقدم لتلمسان ففتحها سنة 175هـ ودخلها ونظر في أحوالها وبنى بها مسجداً، ثم عاد إلى وليلي قاعدة ملكه، وكانت حركته هذه هي القاضية على الوثنية والعقائد الزائغة في المغرب ولذلك يلقب رضي الله عنه بفاتح المغرب، وإن كان المغرب قد فتح قبله بما يزيد على قرن.

ولما بلغ خبر قيامه وانتصاراته المذكورة إلى هارون الرشيد ببغداد اغتم من أجله، وجعل يفكر في وسيلة للتخلص منه خوفاً من استفحال أمره وتقدمه إلى إفريقيا، والاستيلاء عليها، فأرسل له رجلاً من أهل المكر والدهاء يقال له: سليمان بن جرير، ويعرف بالشماخ، فأتى إدريس في صورة المخالف على الرشيد حتى تمكن منه فسمه في قارورة طيب وخرج هارباً، فاقتفى راشد أثره في جمع من الفرسان فأدركه، ولكنه حماه أجله فأفلت.

ورجع راشد إلى وليلي ودفن المولى إدريس بمدينة زرهون الحالية، وكانت وفاته رحمه الله فاتح ربيع الثاني سنة 177هـ.

إدريس بن إدريس

ولد بعد وفاة أبيه بشهرين، وكان رؤساء القبائل قد أجمعوا اتباعاً

لرأي راشد على انتظار وضع أمه الحامل حتى إذا كان المولود ذكراً جعلوا إليه ملك أبيه تبرّكاً بآل البيت، وإلا نظروا لأنفسهم من يولونه عليهم، وكانت أمه جارية بربرية اسمها (كنزة) فلما أتمت أشهر حملها وضعته غلاماً ذكراً أشبه الناس بوالده، فأخرجه راشد إلى الناس حتى نظروا إليه، فقالوا هذا هو إدريس بعينه، فسماه راشد باسم أبيه، وقام بأمره وأمر الرعية وكفله حتى فطم وشبَّ، فأدّبه أحسن أدب وأقرأه القرآن فحفظه وله من العمر 8 سنين، وعلّمه السُنَّة والفقه والنحو والشعر والأمثال وسير الملوك، ودرّبه على ركوب الخيل والرمي بالسهام ومكائد الحروب، حتى إذا كملت سِنّه إحدى عشرة، بايعته جميع القبائل المغربية بجامع مدينة وليلي وخطب الناس قائلاً فيهم بعد الافتتاح: أيها الناس: «إنا قد ولينا هذا الأمر الذي يضاعف للمحسن فيه الأجر وللمسيء الوزر ونحن ولله الحمد على قصد جميل فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا فإن ما تطلبونه من إقامة الحق إنما تجدونه عندنا» فعجب الناس من فصاحته وثبات جأشه على صغر سنِّه، وعلموا أن هذا الشبل من ذاك الأسد.

ولما استقام له الأمر قصدته الوفود من كل ناحية ومكان وفيهم وفود العرب من بلاد إفريقيا والأندلس، فسر بوفادتهم وأجزل صلاتهم وجعلهم بطانته واتخذ منهم رؤساء حكومته، ولم تزل الوفود تقدم عليه من العرب والبربر حتى ضاقت بهم مدينة وليلي، فعزم على بناء مدينة ينتقل إليها بخاصته وجنوده ووفود أهل دولته، فقر الرأي على بناء مدينة فاس، وشرع في ذلك غرة ربيع الأول سنة 192هـ.

ـ فاس ـ

حاضرة المغرب وأم مدنه ومركز الحركة العلمية والأدبية والسياسية والاقتصادية فيه، لم تزل منذ تأسيسها مهوى أفئدة الرحالة من كل جهة، ومن المحقق إن لم يرها لم يرَ المغرب، وأهلها أصحاب جدٍّ وعمل، وقد جلوا في ميادين العلم والصناعة والتجارة، وامتازوا بحب التجول في البلاد والمغامرة في طلب المال من وجهه الحلال، وفيها تلتقي جميع العناصر المتساكنة بالمغرب من بدو وحضر، وأهل الشمال والجنوب، وسكان الصحراء والتخوم السودانية، فضلاً عن أن بها معظم الأسر النبيلة بالمغرب، والبيوت العلمية التي توارثت المجد منذ قرون.

وناحيتها من أنزه النواحي وأخصبها، صحيحة الهواء غزيرة المياه كثيرة الفواكه، متنوعة الثمرات، وقد تتخللها البساتين والرياض فيما بين دورها ومساكنها لكثرة عيونها وجريان أنهارها، وهي واقعة بين ثنيتين عظيمتين، ويشقها نهرها المسمى (وادي الجواهر) وإحدى عدوتيه تسمى عدوة الأندلس لنزول عرب الأندلس بها وهي أول ما اختط إدريس، والأخرى تسمى عدوة القرويين لنزول عرب القيروان بها، وقد بنى إدريس في كلتا العدوتين مسجداً للخطبة وسوقاً وغير ذلك من المرافق العامة وسوَّرها وحصَّنها، ثم اتسعت عمارتها بعد ذلك على عهد الدول المتعاقبة بالمغرب، وكان بنو مرين من أكثر الدول اعتناءً بها واهتماماً بتوسيع دائرتها، فبنوا بها المدينة البيضاء

التي يقال لها (فاس الجديد) وخلَّدوا بها مآثر جمَّة من مدارس ومساجد تشهد لهم بعلوّ الهمّة، والصانع المغربي بالمهارة وبالذوق الفني المهذب.

ولما أتمّ المولى إدريس بناء فاس أقام فيها يدبِّر شؤون الملك إلى سنة 197هـ حيث خرج لغزو بلاد المصامدة (سوس) فاستولى عليها ثم عاد إلى فاس، وفي سنة 199هـ خرج يريد قبائل نفزة في المغرب الأوسط فقهر من كان بها من الخوارج، ودخل مدينة تلمسان فأصلح سورها ومسجدها وحصَّنها ثم رجع إلى فاس وقد استدبَّ له أمر بلاد المغرب وصفا له ملكها وضرب السكة باسمه ولم يبق له منازع في ملكه، ولكنه احتضر رحمه الله فمات في عنفوان شبابه ثاني جمادى الآخرة سنة 213هـ.

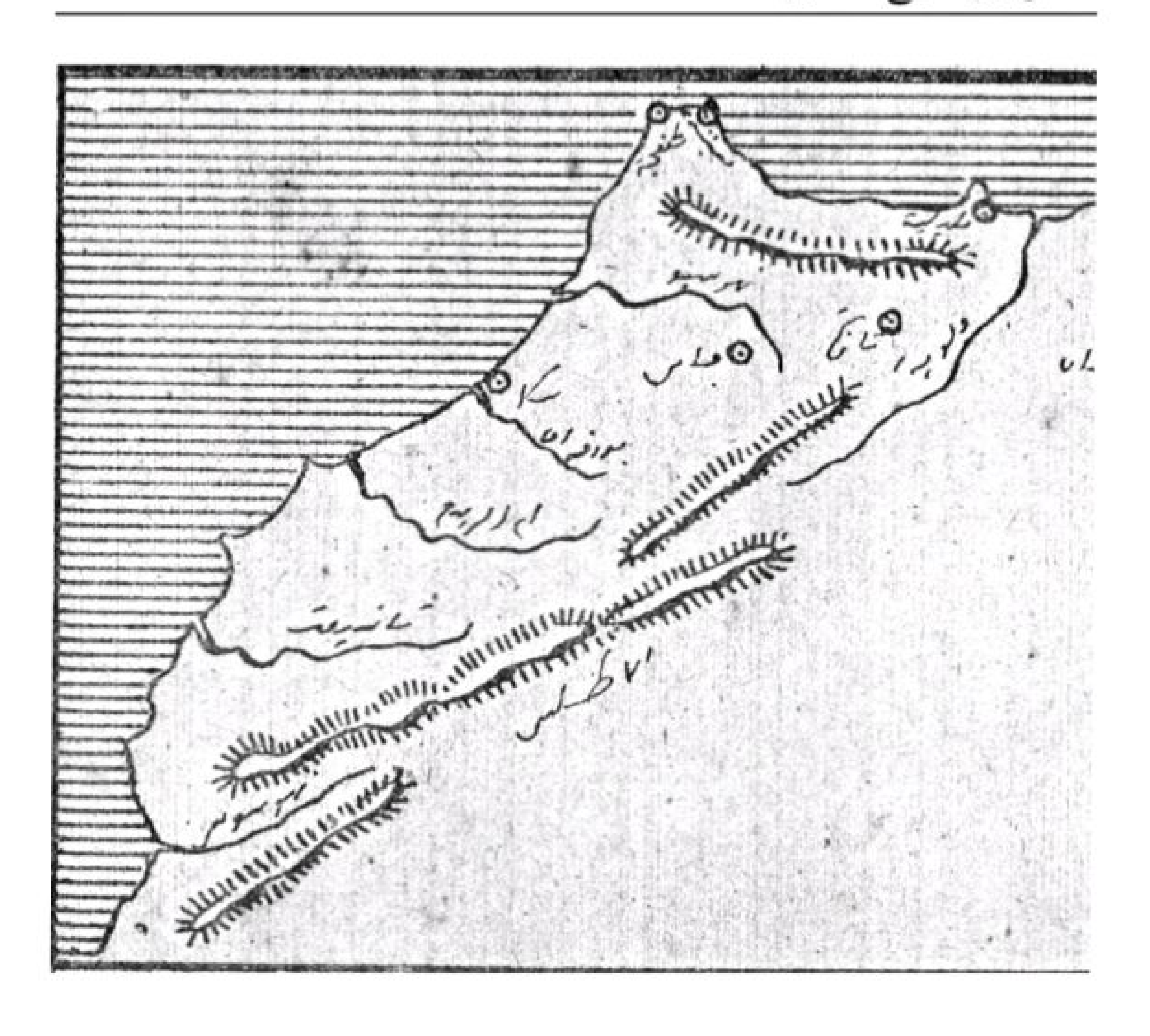
محمد ابن إدريس

تولى بعد وفاة أبيه وقسم المغرب بإشارة جدته كنزة بين ثمانية من إخوته، فكان ذلك مثار الشر إذ خرج عليه بعضم فوقعت الحرب بين الأخوة وتداعى بناء الدولة الفتيَّة، ومع أنه تغلب على الخارج، واستمرت الدولة بعده سبعة عقود من السنين أو تزيد إلا أنها لم تقم بأعمال عظيمة تستحق الذكر فضلاً عن الفتن التي طلع قرنها في أيامه فلم يكسر بعد.

ثم قام موسى بن أبي العافية فأصلى الأشراف الأدارسة ناراً حامية، وقوَّض دولتهم بفاس وأتى عليها من الأساس، وقد تداول

السلطة هو وأولاده أكثر من مائة سنة ولكن المغرب لم يَجْنِ من ولايتهم إلا الخراب والدمار.

وفي أعقاب دولتهم قامت للأشراف الأدارسة إمارة صغيرة بناحية الريف، ثم انقرضت سنة 375هـ وبذلك انقطعت الدولة الإدريسية من المغرب نهائيًّا، وسبحان الباقي بلا زوال.



خريطة تمثل المغرب في عهد الأدارسة

المغرب في عهد الأدارسة

كانت مدة الأدارسة بالمغرب مائتي سنة وثلاث سنين تقريباً وكان عملهم بالمغرب من السوس الأقصى إلى ما وراء تلمسان في غير أيام ضعفهم.

وقد يقال إن المولى إدريس باقتطاعه للمغرب عن دولة الخلافة واستقلاله به، قد خرج عن الجماعة، وفرق كلمة المسلمين، إلا أن الواقع أنه أفاد المغرب كثيراً لا سيما وأن مآل البلاد الإسلامية كان هو التجزئة قطعاً، وفي الأقطار النائية عن بلاد العرب مثل المغرب كان يلزم أن تقوم بها حكومة عربية محلية لتطبعها بطابع العروبة الصميم بعد دخولها في الإسلام وتتمكن من إدارتها بالخصوص إدارة موجهة نحو فكرة الجامعة العربية الإسلامية، وإلا كان مصيرها مثل بلاد العجم والتركستان وغيرها من البلاد التي أسلمت ولم تتعرب. وفي الحقيقة أن ولاية الأشراف الأدارسة للمغرب بهذا الشكل كانت خيراً وبركة على أهله، إذ تم انتشار الدين الإسلامي وبلوغ دعوته إلى كل بقعة، وأمحت منه الدعاوي الباطلة والعقائد الزائغة من اعتزال وخارجية وتشيع فضلاً عن النِّحَلِ والمذاهب غير الإسلامية، فكان هذا مبدأ توحده الذي لم ينفصم بعدوان سعى في ذلك ساعون، واستعرب المغرب في أيام الأدارسة وانتشرت فيه العلوم والآداب ولولا ما كان يثور من الفتن آناً بعد آن لأتت النهضة العلمية الناشئة حينئذٍ بأحسن النتائج، ويكفيك أن في هذا العهد

أسست الجامعة القروية العظيمة. وعلى الجملة فقد خطا المغرب في أيام الأدارسة خطوات واسعة نحو الحضارة والعمران، وفي غالب الأحوال كانت المعيشة رخيَّة والحكومة عادلة والرعية ممتَّعة بجميع الحقوق من غير أن يضيق عليها في شيء أو تكلف بما لا تطيق مع متانة في الأخلاق وقوة في النفوس وصلابة في الدين.

جامعة القرويين

بنتها السيدة فاطمة أم البنين الفهرية القيروانية من مالها الحلال الذي ورثته من أبيها وزوجها سنة (245هـ) أعني قبل بناء الأزهر بمائة سنة وزيادة إذ كان بناء الأزهر سنة (359هـ) فتكون هي أقدم جامعة في العالم، ولم تكن لأول بنائها بهذه السعة والفخامة بل زيدت فيها بعد ذلك زيادات مهمة أيام دولة زناتة والمرابطين وغيرهم، وأما المدارس والخزانات وغيرها من المصالح والمرافق الملحقة بالقرويين فإن لبني مرين القدح المعلى فيها ونشير بالخصوص إلى مدرسة المطارين التي بناها أبو سعيد المريني، ومدرسة أبي عنان اللتين تُعَدَّانِّ قطعتين خالدتين من الفن المغربي، ولا ننسى خزانة الكتب وخزانة المصاحف اللتين احتفل في بنائهما بما لم يسبق إليه.

وابتدأ نجم القرويين يلمع في سماء العلم منذ أواخر القرن الثالث وأول الرابع، فتخرَّج منها علماء كبار في مختلف فنون المعرفة، ومرَّ عليها زمن لم يكن ينافسها فيه أي معهد آخر في أداء رسالة الأدب العربي، وقد قصدها الطلاب من مختلف الجهات حتى من بلاد أوروبا، ومنهم البابا (سلفستر الثاني) الذي كان أول من

أدخل الأرقام العربية إلى أوروبا.

ونظام الدراسة في القرويين لا يختلف عما هو عليه في الجامعات الإسلامية الأخرى، وهو نظام الحلقات، والطالب الذي ظهرت نجابته ينال من أستاذه إجازة تشهد بتحصيله، ومواد الدراسة لا تنضبط، على أن الدروس الدينية واللغوية لم تنقطع من الجامعة أصلاً.

وقد نشطت علوم الفلسفة في الجامعة أيام (الموحدين) كما وقعت نهضة عظيمة في الرياضيات أيام (المرينيين).

واجتاز تاريخ العلوم بالقرويين ثلاث مراحل:

1) عند قيام الدولة الموحدية حيث انتصر مذهب الأشعري بما يستلزمه من علم المنطق والجدل على مذهب السلف.

2) عندما أعلن يعقوب المنصور الموحدي الحرب على علم الفروع وعمل على نشر السُنَّة.

3) عندما أمر السلطان سيدي محمد بن عبد الله العلوي بتنظيم الدراسة وبعث الحركة العلمية.

هذا كله كان في الماضي أما الحاضر فقد دخلت الكليَّة في طور الإصلاح منذ عام 1332هـ حيث أمر السلطان المرحوم مولاي يوسف بتأسيس مجلس للنظر في شؤون القرويين ووضع برنامجاً للدراسة فيها فقسَّم منهاج الدراسة إلى ثلاثة أقسام، وقرر نظام المراقبة والامتحانات وإعطاء الشهادات، ثم صدر أمر آخر من جلالة السلطان المحبوب سيدي محمد سنة 1350هـ بإعادة النظر في أمر إصلاح



يمثل هذا المنظر قسمًا من داخل المسجد

القرويين وتنظيمها على حسب ما تقتضيه النهضة العلمية الجديدة، ويليق بماضي القرويين الزاهر حقَّق الله الآمال.

ـ أسئلة ـ

1) متى فتح العرب المغرب؟
2) لمن كان المغرب تابعاً قبل حكم الأدارسة؟
3) من هو الذي أسس الدولة الإدريسية ومتى أسسها؟
4) ما هي أعماله في المغرب؟
5) كيف مات وفي أي عام؟
6) ما هو تاريخ ولادة إدريس بن إدريس؟
7) كيف كانت كفالة راشد له؟
8) ما هي شواهد الإخلاص الأخرى في خدمة راشد للأدارسة؟
9) بماذا تعرف نجابة إدريس بن إدريس؟
10) لماذا بنى فاس ومتى؟
11) ما هو موقع هذه المدينة وكيف وقع تخطيطها؟
12) ما هو مقامها بين مدن المغرب؟
13) ما هي حروب إدريس بن إدريس وماذا كانت الغاية منها؟
14) ماذا كان له من العمر لما توفي؟
15) لماذا كانت فكرة تقسيم المغرب مثاراً للشر؟
16) من الذي خرج على الأدارسة وحطَّم دولتهم بفاس؟

17) أين قامت دولتهم الثانية؟

18) متى انقرضت دولتهم وإلى أين بلغ نفوذهم؟

19) ما الذي جناه المغرب من حكم الأدارسة؟

20) كيف كانت الحالة العمومية على عهدهم؟

21) كم كانت مدة حكم الأدارسة؟

22) من بنى جامع القرويين وفي أي سنة؟

23) ما هي الدولة التي اعتنت به أكثر؟

24) ما هو تأثير القرويين؟

دولة زناتة
من مغراوة وبني يفرن

لم يَصْفُ الجو لدولة من الدول مهما كانت صفتها دون أن يكون لها معارض قوي أو ضعيف. والدولة الإدريسية من جملة الدول عارضها العبيديون القائمون بإفريقيا وظهيرهم موسى بن أبي العافية الذي أخرج الأدارسة من فاس وتتبعهم في مواطنهم حتى ألجأهم إلى الريف حيث أسسوا دولتهم الثانية كما سبق القول.

ثم استولت عليه الأطماع فخلع طاعة العبيديين وأعلن دعوة بني أمية أصحاب الأندلس فقاتله العبيديون وهزموه. وقام بدعوة العبيديين من بعده ميسور الخصى فلم تزل الحرب سجالاً بين أصحاب الدعوتين وبنو إدريس على ضعفهم متمسكون بأمرهم وإن أظهروا الخضوع للمتغلب في بعض الأحيان.

هنالك كان المغرب يعيش في فوضى ويتخبط في ظلام إلى أن برقت بارقة أمل باستيلاء زيري بن عطية المغراوي على المغرب في سنة 377. وكانت مغراوة وبنو يفرن قبيلتين من زناتة تتوليان بني أمية منذ أن أسلم جدهم على يد عثمان بن عفان رضي الله عنه، فاتضح حينئذٍ اتجاه المغرب بإخلاص نحو الدعوة الأموية. وقد قاتل زيري

دونها العبيديين فاضطرهم إلى التراجع وانكمشوا فيما وراء تلمسان، وبذلك امتدت سلطته إلى داخل المغرب الأوسط.

وكان زيري ضابطاً حازماً فبنى مدينة وجدة وشيد أسوارها وقصبتها وحصنها وسكنها بأهله وحشمه ونقل إليها أمواله وذخائره وجعلها قاعدته ودار ملكه لكونها جاءت وسط بلاده يحكم منها المغربين ويدبر فيها أمر القطرين، وكان تأسيسه لها سنة 384.



يمثل هذا المنظر المأخوذ
من الجو مدينة وجدة عاصمة سيري

ومع أنه يتولى بني أمية فإنه كان يحذر حاجبهم المنصور بن أبي عامر، ففي سنة 382 استدعاه المنصور إلى زيارة الأندلس فقدم عليه وحمل بين يديه هدية عظيمة من جملتها طير فصيح يتكلم بالعربية والبربرية ودابة من دواب المسك ومهاة وحشية تشبه الفرس وحيوانات غريبة وأسدان عظيمان في قفص من حديد وتمر كثير في غاية العظم التمرة الواحدة منه تشبه الخيارة، وحمل معه من قومه وعبيده ثلاثمائة فارس وثلاثمائة راجل، فصنع له المنصور بروزاً عظيماً، وأنزله بقصر فخم ووسع له في الجرايات والأكرام ولقبه باسم الوزير وأعطاه مالاً جسيماً وخلعاً نفيسة وصرفه إلى عمله وجدد له الولاية على المغرب، فجاز البحر ولما وصل إلى طنجة واستقر بها وضع يده على رأسه وقال: الآن علمت أنك لي.

واستقل ما وصله به المنصور واحتقر لقب الوزارة التي لقبه بها ولقد خاطبه بها بعضهم فنهاه عن ذلك وقال له: ويحك! وزير من يالكع! لا والله إلا أمير ابن أمير، واعجبا لابن أبي عامر ومخرقته، لأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، ولو كان بالأندلس رجل ما تركه على حاله.

واتصل بالمنصور انتقاض زيري له ففسد ما بينهما وأرادا أن يصلحا بالحرب ما لم يصلح بالسلم فتقاتلا وكانت النهاية بعد موت زيري سنة 391 إن راجع ولده المعز طاعة المنصور واستمرت الحال صالحة بين الدولتين إلا أن النزاع بين أمراء مغراوة كان على أشده وكذا بينهم وبين بني يفرن إخوتهم، فإن يدُّو بن يعلى اليفرني كان يناهض زيري بن عطية وغلبه على فاس مراراً.

وكان بنو يفرن قد تحيزوا إلى نواحي سلا فاستولوا عليها وعلى مدينة شالة وكانت هي عاصمتهم ثم ملكوا تادلا وما والاها من البلاد.

وفي سنة 424 كان أميرهم تميم بن زيري بن يعلى وقد قوي أمره واستولى على فاس مدة.

وهكذا تداولت القبيلتان الحكم في المغرب إلا أن الظهور والأغلبية كانا لمغراوة دائماً، فبذلك يحق أن تعتبر الدولة مغراوية.

وعلى كل فإن المغرب منذ قامت هذه الدولة بل من قبل إلى أن اضمحلَّت أمام القوَّة المرابطية في سنة 462 لم يطمئن إلى حياة الهدوء والسكينة، ولم يزل ميداناً للتنازع على السلطة والقتال في سبيل السيطرة، فلا جرم أن بقي خالفا في النهضة العلمية والأدبية ولم يتمكن من الاحتفاظ باستقلاله الذي كان على عهد الأدارسة.

ومع أن زيري كان حقيقاً بأن يضطلع بالمهمة لأنه كما رأيت طموح ومدبِّر إلا أن خصمه كان أدهى وأمر.

نعم قد كثرت العمارة في عهد هذه الدولة فبقطع النظر عن تأسيس مدينة وجدة اتسعت مدينة فاس وكثر البناء فيها وزيد في جامع القرويين زيادات مهمة.

وفيما عدا أيام الفتن كانت الخيرات باسطة والنعم متدفقة والحكام إلا القليل منهم متقشفون في أنفسهم متعففون عن دماء الناس وأموالهم إذ كانت البداوة متمكنة منهم والسذاجة الدينية غالبة

عليهم، فلولا الأنانية والطمع لعاش المغرب في عهده هذا أرغد عيش.

ــ أسئلة ــ

1) فكِّر وقل لماذا لا تخلو الدولة من معارضة؟
2) من الذي ظاهر العبيديين أولاً وثانياً؟
3) لماذا انقلب موسى بن أبي العافية أموياً؟
4) هل سلم الأدارسة أثناء هذه الحروب في دعوتهم؟
5) ما الذي أنقذ المغرب من هذا التزاحم وأفرد وجهته؟
6) لماذا كانت هذه الدولة تتوالى بني أمية؟
7) ما هي أعمال زيري في السياسة والعمران؟
8) ماذا كان موقفه من المنصور بن أبي عامر وعلام يدل؟
9) بماذا غلبه المنصور؟
10) من الذي كان يعارض زيري في المغرب؟
11) أين كان مركز الحكومة اليفرنية وما هي منطقة نفوذها؟
12) ما هي مدة حكم هذه الدولة؟
13) ما هي حالة المغرب العمومية في هذا العهد؟

الدولة المرابطية

هي دولة لمتونة، قبيلة من صنهاجة وسبب تسميتها بالمرابطية إن أوائلهم كانوا قد دخلوا في رباط لعبد الله بن ياسين لما انعزل عنهم فسماهم بذلك. ويسمون أيضاً بالملثمين لأنهم كانوا يتلثمون ولا يكشفون وجوههم أصلاً.

وكانت مواطن لمتونة وسائر قبائل صنهاجة بالصحراء. وكانوا على جهل عظيم بالدين، ففي سنة 427 حج أميرهم يحيى بن إبراهيم الكدالي فلقي الفقيه أبا عمران الفاسي بالقيروان وعرفه حالة بلاده وسأله أن يبعث معه بعض تلامذته يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين. فندب الفقيه تلامذته لذلك فلم ينتدب منهم أحد، إشفاقاً من دخول الصحراء، فكتب له رسالة إلى تلميذه وكاك بن زالوا، وهذا بعث مع يحيى تلميذه عبد الله بن ياسين، وكان من أهل الدين والورع والفقه والأدب والسياسة.

فلما دخل مع يحيى بلاده فرح به أهلها وعظَّموه، وقد وجدهم يجمعون بين عشر نسوة وأكثرهم لا يعرفون من أحكام الدين وشعائره شيئاً، فجعل يأمرهم وينهاهم فثقل عليهم ذلك، ولما أيس منهم اعتزلهم وأقام هو في رباط يعبد الله تعالى، فما كان غير قليل

حتى شاع أمره ولحق به جمهور غفير فصار يعلمهم ويقرئهم الكتاب العزيز حتى إذا استقام له أمرهم ندبهم إلى جهاد من خالفهم من قومهم فأتاح الله لهم النصر عليهم ودخلوا في السُنَّة والجماعة طوعاً أو كرهاً.

ودخل المرابطون إلى المغرب في سنة 447 ومعهم عبد الله بن ياسين، فقاتلوا مجوس برغواطة بتامسنا وردوهم إلى الإسلام ثم تتابع دخول بلاد المغرب في طاعتهم وكان أميرهم أبو بكر بن عمر اللمتوني قد أتاه خبر بانتقاض أمر الصحراء فعزم على المسير إليها لاستصلاح أحوالها ولجهاد الكفار من السودان، فإن للمتونة يداً بيضاء في انتشار الإسلام بتلك الأصقاع، ولهذا استخلف ابن عمه يوسف بن تاشفين على المغرب وفوَّض إليه أمره وذهب هو إلى الصحراء.

يوسف بن تاشفين

هو ملك المغرب والأندلس ورجل إفريقيا الشمالية العظيم استخلف على المغرب في سنة 453 وكانت وفاته سنة 500 وله من العمر تسعون سنة.

كان هذا السلطان أول الملثمين وآخرهم، ليس فيهم مثله وقلَّ فيمن أتى بعده من سلاطين المغرب من كان مثله علو همة وحسن سياسة ومتانة دين. وهو أول من تلقب بأمير المسلمين في الإسلام وأول من ضم الأندلس إلى إفريقيا.

فلما تولى أمر المغرب اختار قواده من ذوي الكفاءة وجعلهم مقدمة بين يديه وسار هو في أثرهم يتقرى البلاد ويقاتل من يقاومه من مغراوة وبني يفرن وسائر القبائل حتى دوخ بلاد المغرب وفتح فاسا وقضى نهائياً على دولة زناتة. ثم طمح إلى الاستيلاء على المغرب الأوسط وعاصمته تلمسان ففتحها من يد مغراوة ثم افتتح مدينة تنس ووهران وجبل وانشريس وجميع أعمال شلف إلى الجزائر ورجع وقد صفا له أمر المغربين سنة 475. وأما بالصحراء فقد كان مستخلِفهُ أبو بكر بن عمر مضى يجاهد فيها إلى أن بلغ حدود السودان ونهر النيجر ودخلت هذه البلاد كلها في طاعة يوسف لما توفي أبو بكر هذا سنة 480.

وفي هذه الأثناء كانت تتوارد أنباء سيئة عن الأندلس واستئساد العدو بها واستيلائه على ثغور المسلمين وتضريبه بين أمرائها الذين يعرفون بملوك الطوائف منتهزاً فرصة اشتغال بعضهم ببعض ليقضي على البقية الباقية لدولة الإسلام والعروبة بتلك الجزيرة.

ولما طغى السيل ويئس الأندلسيون من النجاة عزموا على الاستصراخ بيوسف فاجتمع أمراؤهم وكتبوا إليه مستنجدين بحميته وشجاعة قومه المرابطين، فما كان منه إلا أن لبَّى دعوتهم واستنفر الجيش والمقاتلة إلى الجهاد وجاز إلى الأندلس جوازه الأول في سنة 479 فلقيه أهلها وأمراؤها وعلى رأسهم المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية وابن الأفطس صاحب بطليوس وغيرهما ونازل ألفنس السادس ملك قشتالة وجيشه العظيم بسهل الزلاقة من ناحية بطليوس

فانتصر عليه وهزمه شر هزيمة حيث لاذ بالفرار في ثلة من الجند مستتراً تحت جناح الظلام.

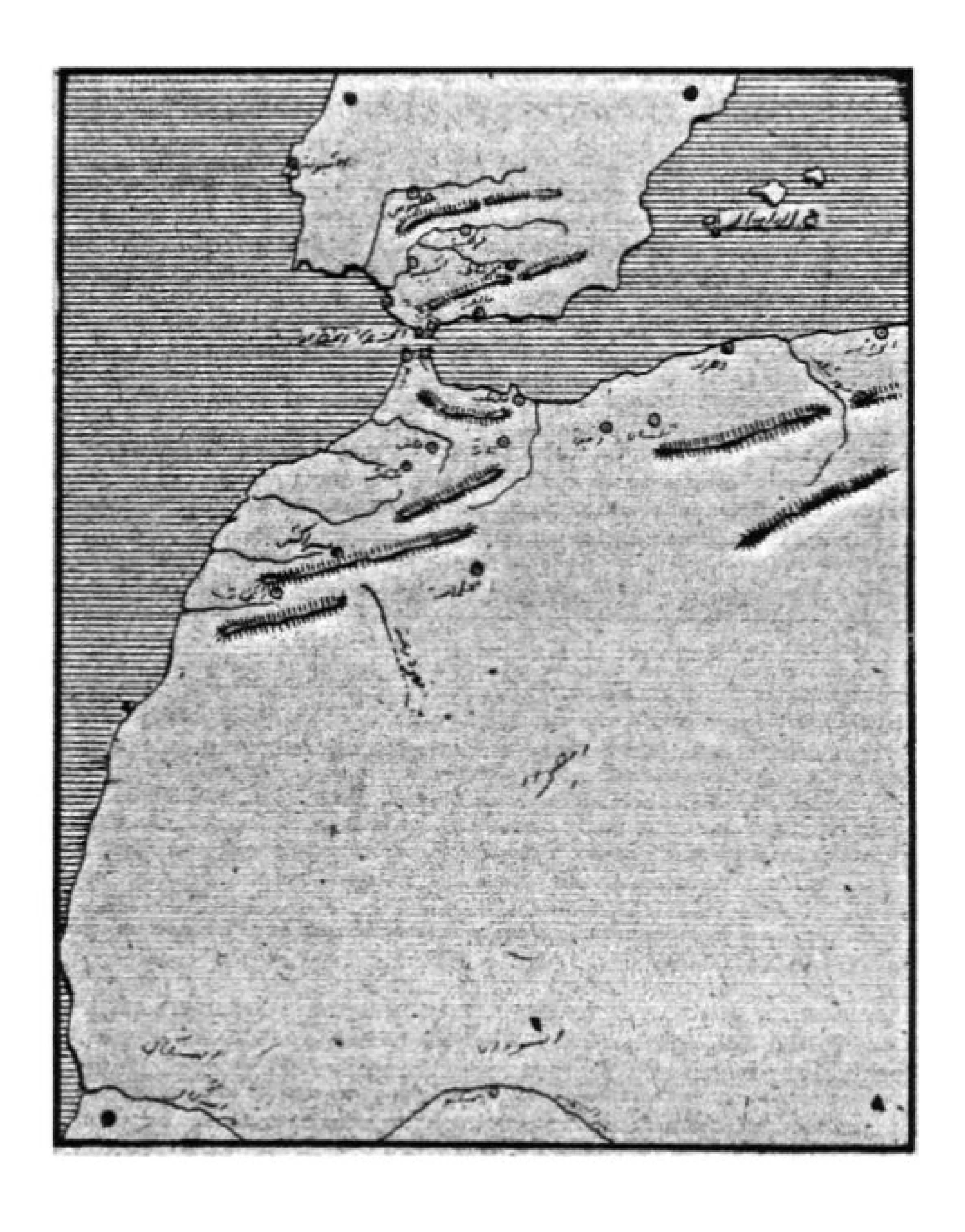
وكانت هذه الواقعة الحاسمة في يوم الجمعة 15 رجب 479 وتعرف بالزلاقة. وبها تنفس الأندلسيون الصعداء وآمنوا على أنفسهم ودينهم وعادت لهم حياة العز والشرف بعدما كانوا فارقوها منذ زمان. ومن المحقق أن لولا هذه الواقعة التي أوقفت مطامع النصرانية عند حدِّها لذهبت ريح المسلمين من الأندلس في نهاية القرن الخامس ولما شاهد الناس تلك المدنية العظيمة التي ازدهرت هناك مدة أربعة قرون أخرى من عهد الموحدين إلى نهاية بني نصر ملوك غرناطة.

ورجع يوسف إلى المغرب بعدما ترك قطعة من جيشه تحت تصرف ملوك الطوائف لحماية الثغور ودفاع العدو لكن هؤلاء سرعان ما راجعوا حياة اللهو والتناحر وضيعوا الجند وعرضوا الأندلس للفقد من جديد، فجاء الصريخ إلى يوسف من فقهاء الأندلس وأعيانها وعامتها فأسرع إليهم وكان العدو قد أخذ في الانقضاض على بلاد الإسلام فأوقفه عند حدِّه وقضى على ملوك الطوائف وضم بلاد الأندلس إلى المملكة المغربية. وبذلك صارت دولة المرابطين تجمع ما بين المغربين والأندلس وتمتد في الجنوب إلى بلاد السودان والسنغال.

وكان يوسف بطلاً نافذاً وملكاً مهاباً، ضابطاً لملكه، متفقِّداً لرعيته، سالكاً سيرة العدل والإنصاف جوَّاداً كريماً ورعاً تقيًّا مقرّباً

للعلماء والفقهاء صادراً عن قولهم في الجليل والحقير، ويعد المؤرخون من أعظم أسباب نجاحه زواجه بالسيدة زينب بنت إسحاق النفزاوية وكانت تحت أبي بكر بن عمر فطلقها لما أراد الدخول إلى الصحراء وهي كانت مرشدته في كثير من أعماله. ولا ريب فإن للنساء تأثيراً كبيراً على حياة العظماء، وقلَّ أن تجد شخصية كبيرة لا تكون المرأة من عناصر تكوينها ومن أعظم مآثره بناء مدينة مراكش سنة 454.

مملكة المرابطين



خريطة تمثل جميع المناطق
التي امتدت إليها السلطة المرابطية

مراكش

عاصمة الجنوب ومدينة الهواء والنخيل تسمى الحمراء والبهجة ولها من اسمها نصيب، فإن مكانها في سفوح جبال الأطلس وسعة أرجائها ونزهة ناحيتها جعلتها تبهج الناظر وتشرح الخاطر، وإن من مناظرها الفتانة رؤية غروب الشمس بها ورؤية الثلوج على قمم الجبال بقربها وهي التي تعدل جوّها وتلطف حرّها. وأهلها من أطيب الناس أخلاقاً وأكرمهم نفوساً ولهجتهم من أفصح اللهجات المغربية. وفيها المعلم والأدب سوق رائجة. وقد مرت عليها عصور كانت هي العاصمة لكل من المغارب الثلاثة والأندلس، وتقدمت فيها معارف الحضارة تقدماً كبيراً، ولا يزال طابع ذلك العهد الزاهر عليها إلى الآن، فلذلك لا تكمل معرفة المغرب إلا برؤيتها ومخالطة أهلها.

ولما بناها يوسف جعلها مقرًّا لجيشه وأهل دولته، وكان يحترم ويعمل في الطين والبناء مع الخدمة تواضعاً منه لله تعالى ولم يجعل عليها سوراً، ثم سوَّرها ابنه علي سنة 526 وبنى مسجده المعروف به (جامع ابن يوسف) وهو بمثابة القرويين في مراكش. وأكثر الموحدون فيها البناء وشيدوا الآثار كجامع الفناء العظيم ذي المنار الضخم المعروف بالكتبية وصهريج المنارة وغيرهما وللمرينيين فيها أيضاً آثار كمدرسة جامع ابن يوسف وغيرها وللسعديين أيضاً آثار منها قبورهم التي تنبئ عن مبلغ تفننهم في الحضارة والعمران. وأما جنان أكدال التي أنشأها السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام العلوي فإنها من أجمل المناظر وأحسن المآثر. وفوق هذا فإن بها

من مشاهد رجال العلم والصّلاح كضريح القاضي عياض وأبي العباس السبتي وأبي القاسم السهيلي ومحمد بن سليمان الجزولي وغيرهم ما يزيدها فخراً وشرفاً، فلذلك يقال فيها بغداد المغرب.

ولما أتمَّ يوسف هذه الأعمال توَّجها بتاج الصدق والإخلاص فأعلن انضواءه تحت لواء الجامعة الإسلامية وكتب للخليفة العباسي أحمد المستظهر بالله يبايعه ويطلب منه تقليداً على ما بيده من الأعمال فأجابه الخليفة إلى ذلك وكان يلقب بأمير المسلمين وكره أن يلقب بأمير المؤمنين تأدباً مع الخليفة. وهذا هو المثل الأعلى لما يجب أن يكون عليه ولاة الأقاليم الإسلامية وملوكها لو كانوا يشعرون. ولو فعلوا ذلك لما وجد العدو قط إلى غمز قناتهم سبيلاً وما شاء الله كان. وقد ضرب يوسف السكة باسمه واسم الخليفة العباسي وبقي هو وابنه يخطبون له على منابر المغرب والأندلس التي كانت تنيف على ألفي منبر.

مراكش عاصمة المملكة المرابطية





يمثل هذا المنظر المأخوذ من الجو صورة(مراكش الحمراء) وترى منارة الكتبية الشهيرة وهي تناطح السحاب

علي بن يوسف

ولِّيَ بعد وفاة أبيه وله من العمر 23 سنة وقام على قدم وساق في ضبط مملكته الشاسعة والسهر على مصالح رعيّته فأحبه الناس والتفّ حوله الجمهور من العلماء والأدباء.

وكان حليماً وقوراً صالحاً عادلاً منقاداً إلى الحق مشاوراً لذوي الرأي والفضل.

وجاز إلى الأندلس سنة 503 وفتح مدينة طلايوت ومجريط ووادي الحجارة وحصوناً كثيرة حول طليطلة ثم عاد إلى المغرب وفتح قائده سير ابن أبي بكر مدينة شنترين وبطليوس ويابورة والإشبونة عاصمة البرتغال ثم عبر هو مرة أخرى إلى الأندلس سنة 513 وقام بأعمال حربية مهمة لقمع العدو وفتح مدينة شنتمرية ولم يرجع حتى مهد سياسة الأندلس وأسند ولايتها العامة لأخيه تميم ثم بعد وفاة هذا سنة 520 أسندها لولده تاشفين الذي سار بسيرة أبيه جده في الجهاد وحسن السياسة وبقي الأمر مستقراً في نصابه والأيام مؤاتية لهذا الملك حتى توفي سنة 537 ولم يعكر عليه صفو راحته إلا ظهور أمر الموحدين الذي استهان به أولاً لورعه وتقواه فاستحال أخيراً إلى خطر عظيم قضى على دولة المرابطين واجتثها من أصولها أقوى ما كانت وأعظمه.

وهكذا لم تنته سنة 541 حتى انتهت حياة هذه الدولة ولله الأمر من قبل ومن بعد.

المغرب على عهد المرابطين

قامت الدولة المرابطية على أساس دعوة دينية خالصة لم تشب بتدليس ولا بتلبيس فكان حكمها مثالاً للعدالة الإسلامية والرحمة الإنسانية، وكان التسامح رائدها ونصرة الحق ديدنها فنشطت الهمم وحيَّت النفوس وقويت معنويات الأمة وتحسنت الحالة الاجتماعية وعمل الاحتكاك بالأندلسيين عمله، فتثقفت العقول وتهذبت المشاعر وازدهرت الحضارة واستبحر العمران وراجت سوق الأدب والعلوم، وتكونت في المغرب أوساط راقية مشبعة بالأفكار الناضجة ومغذوة بالفضائل الدينية فلا هي إلى الانحلال الخلقي الذي كان علة الأقوام في الأندلس على عهد ملوك الطوائف، ولا هي إلى التَّزمت الصوفي الذي ينتجه الفهم المقلوب للدين.

وما يقال من أن سيطرة الفقهاء على الدولة كانت قوية جداً وأن التعصب الديني كان هو شعار هذه الدولة إنما هو دعاية باطلة روجها (دوزي) ومن لف لفه في الحمل على دولة المرابطين والمغاربة عموماً والتعصب لملوك الطوائف والأندلسيين بالحق والباطل. وإلا فمن آوى العدد العديد من فلاسفة الأندلس وعلمائها وأدبائها غير المرابطين حتى قيل إن مراكش حاضرتهم كانت تشبه بغداد أيام عزها في انثيال أهل العلم عليها من كل جهة ومكان.

وكذلك أكرم ملوك هذه الدولة علماء الحديث والأصول والكلام فاختار يوسف بن تاشفين عبد الله ابن العربي المعافري

وولده القاضي أبا بكر الشهير لسفارة العراق واختار ولده علي بن يوسف لقضاء قرطبة بعد قضاء سبتة القاضي عياضاً الذي نكبه الموحدون فيما بعد، فهل مع هذا يصح أن يقال إن نزعة الفقه في هذا العصر غلبت على ما سواه؟

وقد تسامع الناس في الشرق بهذه الفضائل وانتشر للبلاد المغربية بينهم ذكر عاطر، فأكثر علماؤهم من الثناء على هذه الدولة والتنويه بها حتى لقد هم أكبر رجالات الفكر الحر بالمشرق في ذلك العهد وهو أبو حامد الغزالي بالارتحال إلى المغرب ولقاء عاهله الأكبر يوسف بن تاشفين، فأين يكون ذلك من هذه الدعاية المغرضة؟

وبعد، فقد قال المؤرخ ابن جنون: «كانت لمتونة أهل ديانة وصدق ونية خالصة وصحة مذهب ملكوا بالأندلس من بلاد الإفرنج إلى البحر الغربي المحيط ومن بلاد العدوة من مدينة بجاية إلى جبال الذهب من بلاد السودان وخُطب لهم على أزيد من ألفي منبر بالتثنية وكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية وأمن تناهى القمح في أيامهم إلى أن بيع أربعة أوسق بنصف مثقال وبيعت الثمار ثمانية أوسق بنصف مثقال والقطاني لا تباع ولا تشترى، وكان ذلك مصحوباً بطول أيامهم ولم يكن في عمل من أعمالهم خراج ولا معونة ولا تقسيط ولا وظيف من الوظائف المخزنية، حاشا الزكاة والعشر، وكثرت الخيرات في دولتهم وعمرت البلاد ووقعت الغبطة، ولم يكن في أيامهم نفاق ولا قطاع طريق وأحبهم الناس إلى أن

خرج عليهم محمد بن تومرت مهدي الموحدين سنة خمس عشرة وخمسمائة».

ـ أسئلة ـ

1) أين وكيف وجدت دولة المرابطين؟

2) من الذي قام بأمرهم وجمع كلمتهم؟

3) متى دخل المرابطون المغرب وما هي أعمالهم فيه؟

4) لماذا استخلف أبو بكر بن عمر يوسف بن تاشفين على المغرب؟

5) ما هو عمل المرابطين في الصحراء والسودان؟

6) كيف كانت سيرة يوسف بن تاشفين؟

7) ما هو أعظم عمل قام به لفائدة العروبة والإسلام؟

8) إلى أين بلغت مملكته في الشمال والجنوب؟

9) متى بنى مراكش وكيف عمل في بنائها؟

10) ما هو موقعها وما هي مآثرها؟

11) ما هو مغزى مبايعة يوسف للخليفة العباسي؟

12) كم عاش يوسف ومتى تولى ومتى توفي؟

13) كيف كانت سيرة علي بن يوسف؟

14) ما هي فتوحه في بلاد الأندلس؟

15) متى توفي وكم كان له من العمر؟

16) متى انقرضت دولة المرابطين وكم كانت مدة حكمهم بالمغرب؟

17) كيف كان الحكم في أيامهم؟

18) كيف كانت معنويات الأمة في هذا العهد؟

19) كيف كانت الحياة الفكرية وهل صحيح أن المرابطين قضوا بتعصبهم على العلم والعلماء؟

20) ما هي حالة المعيشة والأمن في أيامهم؟

21) قارن بين هذا العهد والعهد السابق وقل ما هي أهم الفوارق بين كل منهما؟

دولة الموحدين

هي دولة المصامدة أهل سوس وإنما يقال لهم الموحدون لأن المهدي بن تومرت القائم بأمر هذه الدولة لما ثار على المرابطين كان يلقن أصحابه العقائد التوحيدية على طريقة الأشاعرة من تأويل الصفات وغيرها ويسميهم الموحدين تنكيتاً منه على المرابطين الذين كانوا على طريقة السلف من عدم التأويل في الصفات.

وكان المهدي هذا خرج من قبيلته هرغة في طلب العلم سنة 500 وهو ابن 15 سنة فدخل الأندلس ورحل إلى المشرق وحج ولقي أبا حامد الغزالي وأبا بكر الطرطوشي ورجع إلى المغرب بحراً متفجراً من العلم فجعل يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ويشتد على الناس في ذلك حتى ألفت إليه الأنظار في كل بلدة مرَّ بها. وفي ملالة قرية ببجاية لقي عبد المؤمن ابن علي الكومي وكان قصده الذهاب إلى المشرق في طلب العلم فقال له: «لقيت علماً وشرقاً» وصحبه معه إلى مراكش حيث واجه أمير المسلمين علي بن يوسف ابن تاشفين وأمره ونهاه وأغلظ عليه فهمَّ بحبسه ثم تركه تورُّعاً منه فخرج خائفاً يترقب إلى أن امتنع بجبال سوس. وهناك في قرية يقال لها تينمل أعلن بدعوته وبايعه الناس سنة 515 وبقي يربي أصحابه

ويعلمهم أمور الدين بالعربية والبربرية ويلقنهم القول بعصمة الإمام على رأي الشيعة مشيراً إلى أنه هو، ولم تحفظ عنه فلتة في البدعة سواها كما يقول ابن خلدون، فلما اشتهر أمره وكثر أتباعه أرسل إليه المرابطون حملة تأديبية فهزمها، ومن ثم جعل يناوشهم القتال ويهدد مراكش ذاتها والقبائل تمد له يد الطاعة إلى أن مات سنة 524 وخلفه رفيقه عبد المؤمن بن علي.

خلافة عبد المؤمن

لما بويع له خرج من حينه مغيراً على بلاد تادلة ودرعة وغمارة فاستولى عليها وتسابق الناس إلى دعوته أفواجاً وانتقضت القبائل على المرابطين. ثم صرف عزمه لفتح بلاد المغرب فخرج من تينمل سنة 534 في غارة طويلة مكث فيها سبع سنين فلم يرجع حتى فتح المغربين معاً الأقصى والأوسط وهلك علي بن يوسف وابنه تاشفين الذي ولي بعده، وبإلقاء أهل فاس وتلمسان ومراكش إليه بالمقاليد أواخر سنة 541 خلصت له مملكة المرابطين في المغرب وقضى على سلطانهم القضاء المبرم. ثم بدأ يهتم بأمر الأندلس فما عتم أن قدم عليه وفدها وهو بمراكش للبيعة سنة 542 وأرسل إليها جيشاً بقيادة أبي حفص عمر الهنتاتي من كبار أشياخ الموحدين، إذ كان العدو اغتنم فرصة انقلاب الدولة فأغار فيها على بلاد كثيرة فغزا هذا الجيش بلاد العدو وفتح فيها فتوحاً مهمة ثم رجع.

وطمح عبد المؤمن إلى الاستيلاء على بقية الشمال الإفريقي لا سيما ودولة بني زيري التي كانت حاكمة هناك قد ضعف أمرها حتى

عدا إفرنج صقلية على بعض ثغورهم واحتلوها فتوجه إليهما بنفسه سنة 546 ومهد أمرها باستيلائه على بجاية وقلعة حماد وقسنطينة ورجع إلى المغرب ثم عاد إليها سنة 554 بجيش جرار فدخل تونس وضرب الحصار على المهدية وكانت بيد الإفرنج وهي أمنع ما يكون يحيط بها البحر من ثلاث جهات فتركها محاصرة برًّا وبحراً ومضى بفتح طرابلس وصفاقس وسوسة وجبال نفوسة وسائر بلاد إفريقيا إلى برقة ثم سقطت المهدية في يده أواخر السنة بعد هزيمة الأسطول الذي أتى لنجدتها وانقطعت بذلك عادية الإفرنج عن بلاد إفريقيا مدى حين.

ورجع عبد المؤمن إلى المغرب وقد ضبط أمر هذه البلاد وأصلح شأنها ولم يسترح إلا قليلاً ثم عبر البحر إلى الأندلس سنة 556 ونزل بجبل طارق وكان قد أمر ببنائه وتحصينه وكان يسميه جبل الفتح فأقام به شهرين وأشرف منه على أحوال الأندلس ووفد عليه قوادها وأشياخها فأمر بغزو غرب الأندلس فغُزي وكان الظفر للمسلمين ثم خرج ألفونس لقتالهم فهُزم وتبدد جيشه وداخل الرعب العدوَّ من جراء ذلك فكف عن المسلمين أذاه.

ولما استدف الأمر لعبد المؤمن وتمهد له ملك إفريقيا والأندلس تاقت نفسه إلى الجهاد فعزم على غزو بلاد الإفرنج براً وبحراً وجعل يستعد لذلك فأمر بإنشاء الأساطيل في سواحل مملكته فأنشئ له منها 400 قطعة ونظر في استجلاب الخيل والاستكثار من أنواع السلاح والعدد وأمر بضرب السهام في جميع عمله فكان يُضرب له منها في كل يوم نحو عشرة قناطير كل ذلك في سنة 557 ولما دخلت سنة 558 خرج من

عاصمته مراكش قاصداً الأندلس برسم الجهاد في جيش عرمرم وتعبئة هائلة ولكن المرض فاجأه وهو برباط سلا ثم توفي ليلة الجمعة 8 جمادى الثانية من السنة المذكورة فحمل إلى تينمل ودفن بها إلى جنب المهدي.

وقد انتهت حياة هذا العاهل العظيم وما انتهى الحديث عن أعماله الكبيرة، فقد رأينا كيف وحّد بين أقطار الشمال الإفريقي وكون منها دولة قوية زرعت الرعب في قلوب الأعداء فحقق بذلك أعظم أمل لا يزال يخالج نفوس الساسة والمهتمين بمستقبل هذه البلاد خصوصاً في العصر الحاضر الذي أصبح شعاره قول الشاعر (وإنما العزة للكاثر).

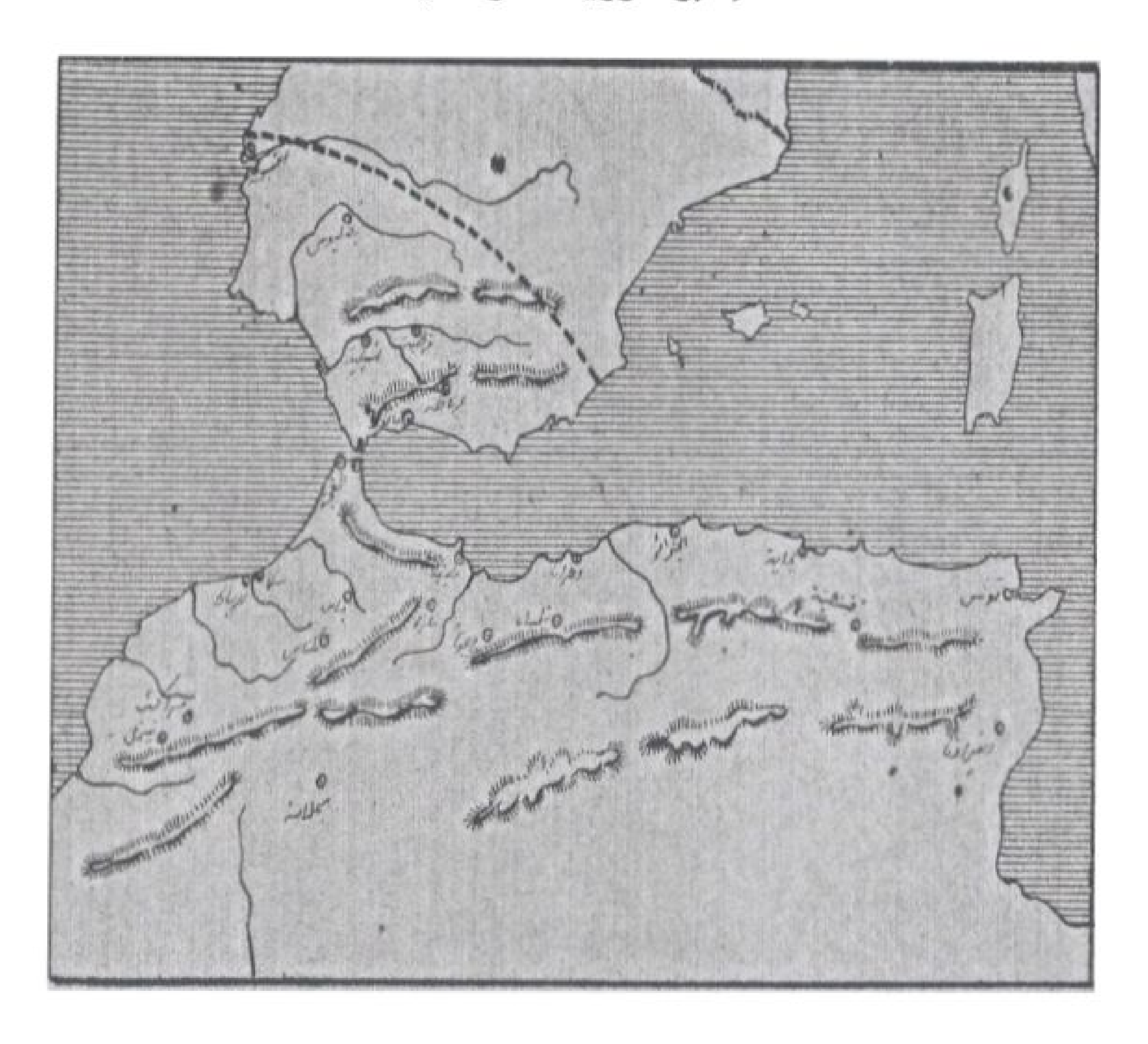
ثم أنه اتبع العمل العسكري بأعمال إدارية واجتماعية مكنت له في هذه البلاد وجعلت منها وطناً واحداً لا تجزئة فيه ولا خلاف، فكسر أرض إفريقيا والمغرب من برقة شرقاً إلى بلاد نول غرباً بالفراسخ والأميال طولاً وعرضاً ثم أسقط من التكسير الثلث في الجبال والأنهار والطرق وأشباهها وما بقي وظف عليه الخراج وألزم كل قبيلة بأداء واجبها وكان هو أول من جعل ذلك بالمغرب سنة 555 وأمر بمحاربة المسكرات وإزالة المنكرات ونظر في أمور التربية والتعليم فصرف الناس عن كتب الفروع التي كانت قد كثرت كثرة مطلقة إلى كتب الحديث وأمر باستنباط الأحكام منها مباشرة وبذلك قضى على الفكرة الخاملة القائلة بانقطاع الاجتهاد في الأحكام.

وقد اعتنى بأهل العلم وطلبته اعتناءً زائداً ورتب لهم العطاءات الكافية وجعلهم بطانته وأهل خاصته وبنى المساجد العظيمة وحصن الثغور وهدم أسوار المدن التي يمتنع بها الثوار قائلاً: «إنما الأسوار سيوفنا وعدلنا» ومن

جملة مآثره بمراكش جامع الكتبيين العظيم بناه سنة 553 وبستان المسرة وكان طوله ثلاثة أميال وعرضه قريباً من ذلك وكان فيه كل فاكهة تشتهي وجلب له الماء من أغمات زيادة على ما استنبطه له من العيون الكبيرة وأنشأ فيه صهريجاً واسعاً كالبحيرة كان يمرن فيه الجنود وشيوخ الموحدين على العوم والتجديف وهو صهريج المنارة المعروف.

وفي سنة 552 وصله المصحف العثماني الذي كان جلبه الأمويون من المشرق، هدية من أهل قرطبة، فاحتفل عبد المؤمن لقبوله بمراكش احتفالاً عظيماً وصنع له خزانة وأغشية محلاة بالذهب والفضة ومرصعة بأنواع الياقوت والحجارة الكريمة أثابه الله على ذلك إلى غير هذا من أعماله وآثاره الجليلة.

الإمبراطورية الموحدية



**هذه الخريطة تمثل جميع المناطق
التي انبسط عليها حكم الموحدين**

بستان المرة بعاصمة مراكش



هذا المنظر يمثل صهريج المنارة المعروف



صهريج المنارة تحيط به الأشجار والأزهار

يوسف بن عبد المؤمن

ثاني خلفاء الموحدين ومأمون هذه الدولة الذي ناصر علوم الحكمة والفلسفة ووالى أهلها وكان هو نفسه متحققاً بكثير من أجزائها مشاركاً في جملة من فنونها واستوزر أبا بكر ابن الطفيل الطبيب والفيلسوف المشهور، وقرب أبا الوليد بن رشد وحمله على شرح فلسفة أرسطو والتوفيق بين الشريعة والحكمة إذ كان هو مهتماً بذلك غاية الاهتمام، هذا فضلاً عن تضلّعه من العلوم الإسلامية حتى أنه كان يحفظ مع القرآن الكريم صحيح البخاري، ومضى على منهج والده في نصرة علوم السّنَّة حتى قال للحافظ أبي بكر بن الجد وقد ذكر تشعب أقوال الفقهاء في المسألة الواحدة من الأحكام: «ليس إلا هذا (وأشار إلى المصحف) أو هذا (وأشار إلى أحد كتب الحديث) أو هذا (وأشار إلى السَّيف)».

وكان لما تمت مبايعته شرع في تمهيد البلاد ورتق بعض الفتوق ثم توجَّه بعزمه إلى جزيرة الأندلس يدبر أمرها ويغزو أطرافها وجاز إليها جوازه الأول سنة 567 فاستولى على شرقيها وكان في يد ابن مردنيش وغزا أرض العدو بنفسه وكانت له فيها وقائع منصورة. وفي هذه السنة بنى جامع إشبيلية وعقد الجسر على واديها بالقوارب وبنى قصبتها الداخلة والزلاليق لأسوارها والأرصفة المتدرجة بضفتي واديها وجلب لها الماء من قلعة جابر وأنفق في ذلك أموالاً طائلة، ولم يزل مشتغلاً بالجهاد وتعمير البلاد إلى سنة 571 فعاد إلى مراكش بعد غيبة 5 سنين.

ثم خرج إلى إفريقيا سنة 575 لشغب بلغه عن مدينة قفصة فتعهد البلاد برعايته ورد قفصة إلى حظيرة الطاعة وعاد إلى مراكش سنة 577 فوفد عليه ولاة الأندلس ورؤساؤها للتهنئة فأكرم وفادتهم وبلغه أن ألفونس بن شانجة قد شنَّ الغارة على جهات متعددة كمالقة ورندة وغرناطة فعزم على معاودة الجهاد وجاز جوازه الثاني في سنة 579 ونازل مدينة شنترين وشدد عليها الحصار، ثم أنه أصدر أمراً إلى ولده الأمير أبي إسحاق ليتوجه بطائفة من الجند لغزو الأشبونة وناحيتها وكان الوقت ليلاً فلما ارتحل الأمير ظن الجيش أن الأمر عام فارتحل بارتحاله فما أصبح النهار إلا وأمير المؤمنين وحده ليس معه إلا خواصه وحاشيته وبعض القواد فتطلع النصارى إليهم فطمعوا فيهم وفتحوا البلد وخرج جميع من فيه خرجة منكرة وهم ينادون «الري الري!» أي اقصدوا الملك، فوقع القتال وبرز يوسف إليهم وقاتلهم بسيفه حتى قتل 6 أشخاص وطُعن طعنة نافذة، ثم اشتد الدفاع إلى أن هُزم النصارى وقتل منهم خلق كثير وارتحل يوسف يريد الرجوع إلى المغرب فاشتد ألمه ومات رحمه الله يوم السبت 10 ربيع الثاني 580.

يعقوب المنصور

هو ابن يوسف بن عبد المؤمن بويع يوم وفاة والده بالأندلس ودخل إشبيلية فاستنفر الناس لغزو العدو مع أخيه يحيى ثم رجع هو إلى مراكش فغير المناكر وبسط العدل وكتب إلى جميع بلاده بتسريح أهل السجون ورد مظالم العمال، وأكرم الفقهاء وأهل الفضل

وأجرى الاتفاق على أكثرهم من بيت المال، وفرق في الموحدين وسائر الأجناد والضعفاء من بيوتات المغرب أموالاً جمَّة، ولذلك أحبه الناس ولهجوا بذكره فلا يزال اسمه جارياً على ألسنة العامة إلى الآن.

وكان ابن غانية وإلى الجزائر الشرقية من بلاد الأندلس (البليار) لما بلغته وفاة يوسف بن عبد المؤمن قد ثار وأغار بحراً على إفريقيا فاحتل بجاية والجزائر ومازونة ومليانة وغيرها وظاهره على ذلك قُراقوش مولى صلاح الدين الأيوبي وكان قد تغلب على طرابلس وما والاها زمن يوسف بن عبد المؤمن، فنهض إليه المنصور سنة 582 وقاتله فهزمه وشرده في الصحراء. ثم أخذ يدبر أمر العرب النازلين بإفريقيا وكانوا قد قاتلوه مع ابن غانية، ولم يزل دأبهم الإفساد في هذه البلاد منذ سرحهم الفاطميون للتشويش على ملوك بني زيري بها، فلم يرَ أصلح لهم من نقلهم إلى المغرب حيث أعمر بني هلال منهم ناحية الغرب وبني جشم ناحية الحوز فانقطعوا عن الصحراء التي كانوا يعتصمون بها.

ولما فرغ المنصور من أمر إفريقيا وجه نظره إلى أعمال الإصلاح والجهاد وكان قد أجاز إلى الأندلس أول مرة سنة 585 فنازل شنترين وشنَّ الغارات على مدينة الأشبونة وأبلغ في نكاية العدو ثم رجع واغتنم النصارى فرصة اشتغاله في إفريقيا فاكتسحوا أطراف البلاد وملكوا عدة مدن فأرسل إلى قواد الأندلس يوبخهم ويأمرهم بالغزو فخرج محمد بن يوسف إلى قرطبة في جيش كثيف

من الموحدين والعرب وأهل الأندلس ففتح مدينة شلب وباجة ويابورة وكفَّ عادية العدو إلى أن رجع المنصور وجعل يستعد لغزوة الأرك الكبرى فجمع جيشاً عظيماً من العرب والموحدين وسائر قبائل المغرب فضلاً عن المتطوعة والعبيد وعبر البحر إلى الأندلس سنة 591 فانضم إليه جيش الأندلس وكان يختصه بمزيد المشورة ومضى لا يلوي على شيء حتى نزل بحصن الأرك وقد خيمت بأحوازه جنود العدو يضيق بها المتسع.

وابتدأت المعركة صباح يوم الخميس 9 شعبان من نفس السنة فاشتد القتال ما بين الطرفين وجال العدو في المسلمين جولة ثم هبت عليهم ريح النصر وهزموا العدو هزيمة شنعاء وقتلوا من رجاله عدداً كبيراً وأسروا وغنموا شيئاً عظيماً، إلا أن المنصور منَّ على الأسرى وأطلقهم فعز ذلك على المسلمين ثم ندم هو بعد ذلك لأنه عرف أنهم لا بد مقاتلوه. وكانت هذه الواقعة أخت الزلاقة في خفض شوكة النصارى والتمكين للإسلام في بلاد الأندلس إلى أمد بعيد.

ومع ذلك فإن ألفُونس لما رجع مهزوماً إلى طليطلة لم يهدأ له بال حتى جهَّز جيشاً لمحاربة المنصور الذي ما بلغه الخبر حتى أرسل إلى المغرب يستنفر الناس وزحف إلى طليطلة فبرز إليه ألفونس والتقى الجمعان في ربيع الأول سنة 592 فهزمه المنصور ثم حاصر طليطلة وقاتلها قتالاً شديداً وقطع أشجارها وشنَّ الغارات على ما حولها من البلاد وفتح فيها عدة حصون مثل قلعة رباح وهي أمنع حصن بالأندلس ووادي الحجارة ومجريط وغيرها وفتح في

تلك الأثناء مدينة طلمنكة ولم يقلع عن طليطلة إلا لما بلغه الخبر عن انتقاض إفريقيا وحينئذٍ أجاب النصارى إلى الصلح الذي كانوا يطلبونه وجعل مدته خمس سنوات فقط، ثم انكفأ راجعاً إلى المغرب فوصل مراكش في شعبان سنة 594. وكان لما عزم على المسير إلى الأندلس بقصد الجهاد أوصى نوابه ووكلاءه ببناء آثار مهمة في مختلف بلدان المغرب فلما رجع وجد كل ما أمر به من البناءات قد تم على أكمل وجه وأحسنه، فمن ذلك بمراكش القصبة وجامعها الأعظم المعروف به والذي اتخذ فيه لمصلاه مقصورة عجيبة مدبَّرة بحيل هندسية بحيث تبرز لدخوله وتختفي لخروجه، ومنار جامع الكتبية المثل المضروب في الارتفاع وعظم الهيكل، والمسجد الأعظم بطالعة سلا ومدرسته الجوفية، ومدينة رباط الفتح أسسها سنة 593 وسورها وجعلها رباطاً لجيوشه ثم اتسعت دائرتها بعد ذلك إلى أن صارت عاصمة المغرب اليوم، ومن آثاره بها جامع حسان ومناره الأعظم هو مثال الضخامة والإتقان، والجامع الآن خرب وأما المنار فقد قيل أنه لم يتم بناؤه فبقي على الحالة التي يبدو بها الآن. وأكمل بناء جامع إشبيلية وشيد منارة المشاكل للمنارين المتقدمين فهو ثالثة الأثافي بالنسبة لهما، بل قيل أنه ليس في بلاد الإسلام منار أعظم منه وهو (الخيرالدة) المعروفة بإشبيلية. إلى غير ذلك من المساجد والمدارس في بلاد إفريقيا والمغرب والأندلس.

وبنى المارستانات للمرضى والمجانين وأجرى عليهم الإنفاق

في جميع أعماله، ناهيك بمستشفى مراكش الذي يقول عنه المراكشي في المعجب وكان قد جال في بلاد المغرب والمشرق: «ما أظن أن في الدنيا مثله»، ومهَّد السبل وبنى القناطر وحفر الآبار للماء في البرية واتخذ عليها المنازل من أقصى المغرب إلى أقصاه فكانت المرأة تخرج من بلاد قول فتنتهي إلى برقة وحدها لا ترى من يعرض لها ولا من يمسها بسوء.

وبسط أحكام الناس على الشرع ونظر في أمور الدين والورع وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته واشتد في عقوبة تاركي الصلاة وشاربي الخمر، وكان يصلي بالناس الصلوات الخمس ويلبس الصوف ويقف للمرأة والضعيف ويأخذ لهم بالحق وينصف من نفسه وعماله، وأمر برفض فروع الفقه نهائياً وإحراق كتب المذاهب وأن لا يفتى إلا من الكتاب والسُنَّة على أساس الاجتهاد. وبالجملة فقد كان واسطة عقد ملوك الموحدين وكانت أيامه زينة للدهر وشرفاً للإسلام وأهله.



تور حسان بالرباط



منظر خارجي للقصر الملوكي العامر بالعاصمة الرباط

وقد اشتهر أن السلطان صلاح الدين الأيوبي استنصر به على الصليبيين في حربه معهم على بيت المقدس ورجاه أن يبعث بأساطيله ليحول بينه وبين أساطيلهم المتدفقة على بلاد الشام فلم يجبه، وأن ذلك فيما يرى المؤرخون لكون صلاح الدين لم يخاطبه في رسالته بأمير المؤمنين، وهذا تعليل بارد لا نراه يتفق مع أخلاق المنصور وعلو همته وبعد نظره، وإنما الحقيقة أن صلاح الدين كان سرح مولاه قراقوش لبلاد المغرب سنة 568 ففتح طرابلس وما والاها من البلدان ووضع يده في يد العرب وابن غانية وشغب كثيراً على المنصور مما سبب له متاعب جمَّة في بلاد إفريقيا لولاها لكان له في بلاد الأندلس فتوحات عظيمة لا تقدر بقيمة فهذا هو السبب الحقيقي في أعراض المنصور عن نجدة صلاح الدين الذي ضربه من الخلف وأراد أن يغرر به لإتمام الضربة، وإلا فأعمال المنصور في الجهاد وإعلاء كلمة الإسلام لا تقل عن أعمال صلاح الدين.

ويقال إنه بعد أن صرف رسوله جهز من أساطيله لهذا الغرض 180 قطعة ومنع النصارى من سوحل الشام.

ويؤيد هذا ما له من الصيت العظيم عند أهل الشام حتى أنهم أقاموا له مشهداً بالقرب من دمشق. والمستقبل كفيل بتحقيق هذه المسألة.

وكان المنصور لما رجع من الأندلس أخذ البيعة لولده محمد الناصر فبايعه كافة الموحدين وسائر الرعية ثم أجلسه في محل الخلافة وجرت الأحكام على يده وصدرت الأوامر باسمه فلما رأى

المنصور أن الملك قد استدف لولده دخل قصره فلزمه حتى مات في سنة 595.

وقيل أنه ساح في الأرض حتى انتهى إلى بلاد المشرق وهو مستخف ومات هناك خاملاً.

وإذا صح هذا الأمر فلعله كان ينوي غزو الشرق جزاءً وفاقاً بما فعل معه صلاح الدين فذهب بنفسه لوضع خطة ذلك، ولكن الأجل المحتوم عاجله فصار إلى رحمة الله.

محمد الناصر

بويع في حياة أبيه ثم جددت له البيعة بعد وفاته وقام بأمر الدولة أتم قيام فأخضع الثوار وجدد معالم البلاد، وأهم الأحداث في أيامه أمران:

1) ثورة ابن غانية بإفريقيا الذي طالما روع أمن تلك البلاد في أيام المنصور ولجأ إلى الصحراء متربصاً بالدولة الدوائر فحالما سمع بموت المنصور برز على المسرح أيضاً واستولى على أعمال قراقوش بطرابلس وعلى المهدية وبلاد الجريد وتونس والقيروان وامتحن الأهالي بأنواع العذاب فلما بلغ الخبر إلى الناصر نهض إليه سنة 600 وبعث الأسطول في البحر، وما شارف الناصر بلاد إفريقيا حتى هرب ابن غانية واستجاش العرب على الناصر الذي سرح إليه قطعة من الجيش بقيادة وزيره عبد الوحد بن أبي حفص الهنتاتي فلقيه بجبل تاجورة من ناحية قابس فقتله واستراحت البلاد والعباد

من مكره وعبثه.

ثم شدد الناصر الحصار على المهدية وكان ابن غانية قد أودع بها ذخائره وحرمه ففتحها في 27 ج ل 602 ولكي يقطع دابر فساد هذه العائلة بعث بأسطول من مرسى الجزائر إلى جزيرة ميورقة من جزائر الأندلس الشرقية وكانت كما سبق القول بيد ابن غانية فنازلها ثم اقتحمها عنوة وقتل بها أخو ابن غانية وبذلك استدف الأمر للناصر في المغرب الأدنى وولي عليه وزيره وثقته عبد الواحد ابن أبي حفص ورجع إلى المغرب.

2) غزوة العقاب بالأندلس وذلك أن الناصر جهز جيشاً عظيماً أربى على جميع ما تقدمه من الجيوش وقصد بلاد الأندلس مريداً القضاء على العدو لما بلغه من استطالته على ثغور المسلمين وانتهابه لهم إلا أن هذه الجيوش الكثيرة كان يعوزها القيادة والتدبير، فالوزير الناصح عبد الواحد بن أبي حفص بإفريقيا والناصر لقوته وحسن استعداده كان مستبدًّا برأيه، والمشير والوزير الوحيد الذي كان متمكناً منه، وهو ابن جامع، سيئ النظر فاسد السريرة، فضرَّب بين القواد وحقّر جيش الأندلس وعمّى أخبار الثغور عن الناصر، وكان الناصر قد نازل حصن سلبطرة وهو حصن منيع فاستصعب عليه وطالت مدة محاصرته له ولم يتركه الوزير ابن جامع يجاوزه فساءت حالة الجيش المعنوية، ثم أن ألفونس افتتح في هذه المدة قلعة رباح ففت ذلك في عضد الناصر وكاد يموت غمًّا، فلما لقي المسلمون النصارى في هذه الواقعة التي تعرف بالعقاب كانوا من

الكلال والضعف بحالة لا توصف وانخذل عنهم جيش الأندلس، فوقعت الهزيمة على الناصر وفنى جيشه ولم يبق منه إلا القليل.

وكانت هذه الرزية العظيمة يوم الإثنين 15 صفر 609 وهي من الوقائع الفاصلة التي عجلت بسقوط الأندلس وأدالت للنصرانية بها من دولة الإسلام والله غالب على أمره.

ثم رجع الناصر بعد ذلك إلى المغرب وليس له همّ إلا أخذ النار وإعادة الكرّة على العدو، فجعل يستجيش الجيوش ويعد العدة ولكن الأجل عاجله فتوفي ليلة الثلاثاء 10 شعبان 610 بعد أن أخذ البيعة لولده يوسف فانحل العزم وتفرقت الجموع وكان ولده هذا مضعَّفاً مشغوفاً براحته لم يبرح الحضرة، فضعفت الدولة في أيامه وبدت الفتوق فيها من كل ناحية، ورغماً عن أنها امتدت إلى سنة 674 فإنه لم يَلِ أمرها واحد من طراز المنصور ولا الناصر بل كل من ولي بعد ذلك كان مشغولاً بذات نفسه ومحاربة إخوته وبني عمومته من الثائرين عليه فضلاً عن ظهور بني مرين واشتداد خطرهم يوماً بعد يوم.

وقد استقلت إفريقيا في هذه الأثناء بأمرة الحفصيين أبناء عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاني الذي كان الناصر ولّاه عليها، ثم الأندلس بأمرة بني الأحمر أصحاب غرناطة بعدما سقطت قرطبة وإشبيلية في يد العدو، وكانت الجزائر كذلك تسير في طريق الاستقلال تحت إمارة بني زيان ولاة تلمسان، وهكذا تفككت أجزاء الامبراطورية الموحدية العظمى.

المغرب في عهد الموحدين

إن الانقلاب الموحدي وقد تم في نهاية السرعة لم يغير من أحوال البلاد كثيراً فلم تتعطل بسببه حركة من حركات الإصلاح والتجدد، والأمة ما شعرت أنها فقدت ملكها العامل علي بن يوسف ابن تاشفين سنة 537 حتى وجدت على رأسها الخليفة المقتدر عبد المؤمن بن علي سنة 541 فلم تقف سيرها نحو التقدم والكمال. وإذا بنهضة المعارف والفنون تصل إلى أسمى غاياتها فتنتعش علوم الشريعة بتعضيد الخلفاء الموحدين للأخذ بالكتاب والسُنَّة، حتى أُحيي الاجتهاد الذي كان قضى عليه تعصب الفقهاء، وتنتشر علوم الفلسفة والطب والرياضيات انتشاراً عظيماً كان له تأثير كبير في نهضة العلوم بأوروبا الحديثة. وأما عن الشعر والأدب فحدث ولا حرج. كذلك نشطت التجارة والصناعة والاقتصاديات عموماً مما أدى إلى تموُّل الناس وانغماسهم في الحضارة والترف.

وأما العمارة والأمن فحسبك ما ذكرناه من الآثار العظيمة والمرافق العمومية والمدن التي بُنيت في هذا العصر في سائر أطراف المملكة الموحدية الشاسعة الأطراف، وقد قيل عن انبساط الأمن في هذا العهد أن المرأة كانت تخرج وحدها من أقصى المغرب إلى أدناه فلا يتعرض لها أحد بسوء وذلك ناتج عن عدل خلفاء الموحدين واهتمامهم بمصالح الرعية وتربية الناس بالترغيب والترهيب، فيقال إن الدينار كان يقع من الرجل في الشارع العمومي

فيبقى ملقى لا يرفعه أحد عدة أيام إلى أن يأخذه صاحبه، وأن القاضي كان يمكث الشهر وأكثر لا يجد من يحكم عليه لتناصف الناس وتهذيب أخلاقهم، وأن الخليفة كان ينظر بنفسه في المظالم حتى ليحكم في قضية الدرهم والدرهمين وينصف من نفسه ويمتثل حكم القاضي عليه.

ولم تكن الدولة تجبي من الناس ما عدا خراج الأرض الذي وضعه عبد المؤمن وباقي دخلها إنما يتكون من الزكوات والأعشار والغنائم ونحوها، ومع ذلك فقد كانت ميزانية الحكومة ضخمة جداً كما تقضي به هذه الآثار العظيمة التي خلفتها من بعدها شاهدة بعلو الهمة وبعد الشأو فضلاً عن ضبطها أطراف المملكة الشاسعة وكفايتها أمر الجند الذين كان يبلغ عددهم في بعض الأحيان إلى المليون واستكثارها من الأساطيل البحرية حتى لقد بلغ ما صنع لعبد المؤمن وحده 400 قطعة.

واستنتج ابن خلدون من قضية استنجاد صلاح الدين الأيوبي بأساطيل المنصور اختصاص ملوك المغرب يومئذٍ بالأساطيل الجهادية، وعدم عناية الدول بمصر والشام لذلك العهد بها، بل إنا نرى اختصاص المغرب بذلك حتى عن الدول الأوروبية المجاورة، بدليل أن ألفونس لما سمع باستعداد المنصور لحربه كتب له يقول مهدداً «أن أبعث إليّ بأساطيلك لأعبر إليك البحر وأقاتلك في بلادك فلا تتحمل مشقة الانتقال إلى هنا» وذلك في وقعة الأرك المتقدمة.

فحقاً إن هذا العهد كان أمجد عهود المغرب ومنتهى عظمته لم يرَ مثله فيما مضى ولا فيما غبر، وإن كان له في المستقبل أمل أجلُّ وأكبر.

ـ أسئلة ـ

1) من هم الموحدون ولماذا يقال لهم ذلك؟

2) من الذي أنشأ هذه الدولة وكيف كان مبدأ أمره؟

3) كيف كان يربي أصحابه وما هي فلتته في البدعة؟

4) متى مات ومن الذي خلفه؟

5) في كم مدة مهد عبد المؤمن المغرب وقضى على دولة المرابطين؟

6) ما هو العمل الذي كون به المغرب دولة عظمى؟

7) ما هو عمل عبد المؤمن في الأندلس وكيف كان استعداده للجهاد؟

8) ما هي إصلاحاته الإدارية والاجتماعية؟

9) ما هي مآثره العمرانية؟

10) متى مات وكم بقي في الحكم؟

11) ما هي أحسن أعمال يوسف بن عبد المؤمن وأهم مآثره؟

12) كيف مات يوسف وكم سنة حكم؟

13) بماذا افتتح يعقوب المنصور مدة حكمه؟

14) من الذي شغب عليه بإفريقيا؟

15) كيف حل مشكلة العرب الذين كانوا يهددون أمر الدولة بإفريقيا؟

16) ما هي فتوحه الأولى في الأندلس؟

17) ما هي الوقعة العظمى التي كف بها عادية النصارى وكيف جرت وما هو تاريخها؟

18) ما هي فتوحه الأخرى في الأندلس؟

19) ما الذي أزعجه عن الأندلس حتى لم يستفد من انتصاره الفائدة المرجوة؟

20) على من تقع مسؤولية هذه الاضطرابات الإفريقية بالتدقيق؟

21) ما هو السبب الحقيقي في عدم إنجاد المنصور لصلاح الدين بأساطيله البحرية؟

22) ما هي آثار المنصور في الحضارة والعمران؟

23) متى توفي المنصور وكم حكم وما هي الإشاعات حول موته؟

24) ما هي الحرب التي نجح فيها الناصر وضمن بها مستقبل دولته؟

25) كيف لم تنجح غزوة العقاب وما هو الأثر السيئ الذي تركته في المسلمين؟

26) كيف تفككت أجزاء الامبراطورية الموحدية؟

27) متى انقرضت هذه الدولة وكم كانت مدتها منذ القضاء على المرابطين؟

28) إلى أين بلغ نفوذ الموحدين في المغرب والأندلس؟

29) ما هي الحالة العمومية بالمغرب في أيامهم؟

30) قارن بين مؤسس دولتهم ومؤسس دولة المرابطين وقل ما هي الفضائل التي امتاز بها كل منهما؟

31) قارن بين عصر الموحدين وعصر المرابطين واذكر ما بينهما من الفوارق والمميزات؟

دولة بني مرين

بنو مرين فخذ من زناتة كمغراوة وبني يفرن المتقدمين. وزناتة قبائل عديدة كانت مواطنهم فيما بين الزاب وسجلماسة، يعني من بسكرة إلى تفيلالت. وكان من عادتهم أن ينتجعوا بلاد المغرب زمان الربيع والصيف ويمتاروا منها للشتاء.

فلما أقبلوا إليه عام 610 وكان على ما وصفناه من الفجيعة والضياع بعد هزيمة العقاب وموت الناصر الموحدي، صاروا يغيرون على أطرافه ويكتسحون أراضيه فلا يجدون من يقف في وجوههم، واستفحل أمرهم شيئاً فشيئاً إلى أن اضطر الموحدون لمقاومتهم ولكنهم انتصروا عليهم وقويت شوكتهم فكانوا كلما وجهت الدولة إليهم جيشاً هزموه.

وكان الأمير عليهم حين دخولهم المغرب عبد الحق المريني، وكان رجلاً فاضلاً ديّناً متورعاً له نفوذ وجاه في قبائل زناتة كلها. ويكنى أبا الأملاك لأنه ملَّك من أولاده لما مات أربعة: أبو سعيد عثمان وأبو معرف محمد وأبو بكر ويعقوب المنصور الذي قضى على دولة الموحدين تماماً وفتح مراكش عاصمتهم وخلص له ملك المغرب وذلك في سنة 674.

يعقوب المنصور المريني

تولى بعد وفاة أخيه أبي بكر سنة 656 ولما صفا له ملك المغرب بنى المدينة البيضاء ملاصقة لمدينة فاس وهي المعروفة بفاس الجديد سنة 674 واتخذها عاصمته.

وكان ذا دين متين موصوفاً بالحلم والجود والتواضع، محبًّا للعلماء مجالساً لهم صادراً في أكثر أموره عن رأيهم. وبنى المارستانات للمرضى والمجانين ورتب لهم الأطباء لتفقد أحوالهم وأجرى على الكل المرتبات والنفقات من بيت المال. وكذا فعل بالجذمى والعمى والفقراء رتب لهم مالاً معلوماً يقبضونه في كل شهر من جزية اليهود، وبنى المدارس لطلبة العلم ووقف عليها الأوقاف وأجرى عليهم بها المرتبات. وبالجملة فقد كان من أعظم ملوك هذه الدولة وممن قعَّد أصولها وأسس قواعدها.

وأما أعماله في الجهاد فهي سجل ذهبي يحفظه له التاريخ أبدا، وكان ميمون النقيبة منصور الراية لم يقصد جيشاً إلا هزمه ولا عدوًّا إلا غلبه. ففي سنة 673 أوفد إليه ابن الأحمر صاحب غرناطة وفداً من مشيخة أهل الأندلس يستنصر به على العدو الذي استأسد على المسلمين ولم ينتصفوا منه بعد واقعة العقاب المشؤومة، فأرسل إليه جيشاً أمَّر عليه ابنه أبا زيان فمضى وقاتل العدو في بلاده وكسر شوكته وكف عاديته عن المسلمين إلى عام 674 حين جاز المنصور بنفسه في جيش كثيف إلى الأندلس وأعمل السلاح في رقاب العدو

واكتسح أراضيهم وقتل زعيمهم (نونة) الذي طالما قاسى المسلمون منه الشدائد.

ثم رجع إلى المغرب، ومن العام التالي عاد أيضاً إلى الأندلس فقاتل العدو في ضواحي إشبيلية وشريس وضيق عليه الخناق ونازل قرطبة فدخل حصن الزهراء فطلب العدو الصلح وتوسط فيه بالقسوس والرهبان فأجيب إليه وتنازل المنصور عن الغنائم لابن الأحمر ثم رجع إلى المغرب.

ونفس ابن الأحمر على المنصور ما آتاه الله من الظهور والغلبة فمالأ العدو عليه وحطب يغمراسن صاحب تلمسان في حبلهما، فلما ظنوا أنهم قد أحاطوا بالمنصور نازل العدو الجزيرة الخضراء بمعاونة ابن الأحمر، وكانت هي وطريف ومالقة وبعض الحصون الأخرى تابعة لمملكة المغرب، ولكن الله سلم فلم تسقط الجزيرة وتغلب أسطول المنصور بقيادة ابنه الأمير يوسف على العدو ففكَّ الحصار عن الجزيرة الخضراء وندم ابن الأحمر على سوء صنعه فحلم عنه المنصور.

ثم جاز المنصور ثالث مرة إلى الأندلس وكان ألفونس[1] العاشر قد استصرخ به على ابنه سانجة الخارج عليه فتقدم يقاتل العدو في

---

(1) المصادر العربية تسمى الملك المستصرخ بالمنصور هراندة ـ يعني فرناندو ـ وهو في الواقع الفونس العاشر الملقب بالحكيم (Alionso el Sabio) إذ هو الذي عقه ابنه سانشو الذي تسميه المصادر العربية سانجة وخرج عليه وهذا الفونس هو ابن فرناندو الثالث فاتح قرطبة واشبيلية وغيرهما، فلعل الاسم كان في المصدر الأصلي (الفونس بن هراندة) فسقطت كلمة الفونس وتتابع الكتاب بعد ذلك في هذا الخطأ.

ناحية قرطبة وبثَّ السرايا في نواحي جيان وطليطلة حتى انتهت إلى حصن مجريط وهو عاصمة مدريد اليوم. وكان ألفونس العار المستصرخ به مصاحباً له في حركته هذه وقد التمس من المنصور أن يمده بشيء من المال يستعين به على إعادة ملكه فأسلفه المنصور مائة ألف دينار رهنه ألفونس فيها تاجه الموروث عن سلفه.

ورجع المنصور إلى المغرب ثم جاز إلى الأندلس جوازه الرابع سنة 683 وكان ألفونس حليفه قد توفي وولي ولده سانجة فأغار على شريس ونواحيها ثم على إشبيلية ولبلة وقرمونة وغيرها من الحصون وانتسف العمران وخرب البلاد فضج العدو من ذلك وضرع في طلب الصلح فوفد على المنصور في جماعة من كبار دولته فتلقاه المنصور وأجابه إلى الصلح وشرط عليه شروطاً كلها في صالح المسلمين وطلب منه أن يوجه إليه كتب العلم التي بقيت للمسلمين ببلاده، فوجه إليه منها 13 حملاً فيها كثير من المصاحف وكتب التفسير والحديث والفقه واللغة فأرسلها المنصور إلى فاس وحبسها على طلبة العلم.

وبعد هذه الأعمال الجليلة مرض المنصور مرضه الذي توفي فيه فلحق بربه يوم الثلاثاء 22 محرم فاتح عام 685 في قصره من الجزيرة الخضراء وحمل إلى المغرب فدفن بمسجد شالة رحمه الله.

أبو الحسن المريني

هو السلطان أبو الحسن علي بن أبي سعيد عثمان بن يعقوب المنصور يعرف بالسلطان الأكحل لأنه كان أسمر اللون. تولى بعد

وفاة والده سنة 731 وكان بعيد الهمة عالي الصيت شجاعاً مقداماً عالماً أديباً عفاً مائلاً إلى التقوى أعظم سلطان في هذه الدولة، بسط نفوذه على المغارب الثلاثة فبلغ ملكه ما بين مسراتة إلى السوس الأقصى من هذه العدوة وإلى رندة من عدوة الأندلس، إلا أنه كان قليل الحظ لم يستقم له الأمر على ما أراد.

فبعد أن مهَّد ملك أبيه وانتظمت بلاد المغرب كلها في طاعته وجه نظره إلى الأندلس وكان العدو قد استولى على جبل طارق منذ سنة 709 وزاحم به ثغور المسلمين فوفد ابن الأحمر على أبي الحسن وفاوضه في شأن الجهاد وما يرجع على الدولتين بخير، فأكرم السلطان وفادته وأسرع فوجه معه ابنه أبا مالك وعقد له على خمسة آلاف من أنجاد بني مرين لمنازلة جبل طارق فاحتل أبو مالك بالجزيرة الخضراء وتتابعت إليه الأساطيل بالمدد وأرسل ابن الأحمر في الأندلس حاشرين فتسايل إليه الناس من كل جهة وزحفوا إلى الجبل وأحاطوا به وأبلوا في حصاره البلاء الحسن حتى فتحوه عنوة سنة 733، واهتم بعد ذلك ببنائه وتحصينه وأنفق عليه أحمال المال وسوَّره وبنى أبراجه فصار بحيث لا يطمع أحد في منازلته.

ثم في سنة 740 أوعز إلى ابنه أبي مالك بالدخول إلى دار الحرب وجهز إليه العساكر من حضرته فتوغل أبو مالك في بلاد العدو غازياً وأبلغ في النكاية فجمع له العدو أحشاداً كثيرة وشخص نحوه فأشار عليه الملأ بالخروج من أرضه فأبى لغرارة الشباب فصبحه العدو وأوقع به وبعسكره.

واتصل الخبر بأبي الحسن فتفجع لهلاك ابنه ثم تجهز للأخذ بثأره وارتحل إلى سبتة وأخرج الأساطيل من مراسي المغرب وعقد عليها لمحمد بن علي العزفي وأمره بمناجزة أسطول العدو بالزقاق فكانت معركة بحرية عنيفة كتب الله فيها الظفر للمسلمين فاستلحموا العدو وقتلوا قائد أسطوله واستاقوا مراكبه إلى مرسى سبتة وكان يوماً من أعز أيام الإسلام.

ثم عزم السلطان على منازلة طريف وكانت قد سقطت في يد العدو سنة 691 فشرع في إجازة العسكر من المتطوعة والمرتزقة وانتظمت الأساطيل سلسلة واحدة من العدوة إلى العدوة ووافاه ابن الأحمر في عسكر الأندلس فعسكر حذاء معسكره وحاصروا طريفاً ونصبوا عليها آلات القتال فجهز العدو أسطولاً آخر اعترض به بحر الزقاق لقطع المرافق عن المعسكر، وطال مقام المسلمين حول طريف وأخيراً وقعت عليهم الهزيمة وتراجعوا ممحصين وذلك سنة 741.

ولما رجع العدو من طريف منصوراً استأسد على المسلمين بالأندلس وأخذ قلعة بني سعيد وهي ثغر غرناطة عاصمة ابن الأحمر على مرحلة منها، فأخذ أبو الحسن نفسه بالعود إلى الجهاد لوقف العدو عند حده فجهز الأساطيل ووجهها مشحونة بالجنود إلى ثغور الأندلس فلقيت أسطول العدو ببحر الزقاق ونشب القتال بين الفريقين فكانت الكرة على المسلمين أيضاً، وبذلك قويت نفس العدو فنازل الجزيرة الخضراء وطاولها الحصار حتى استسلمت سنة

743 فأجاز أهلها إلى المغرب وأحسن أبو الحسن نزلهم.

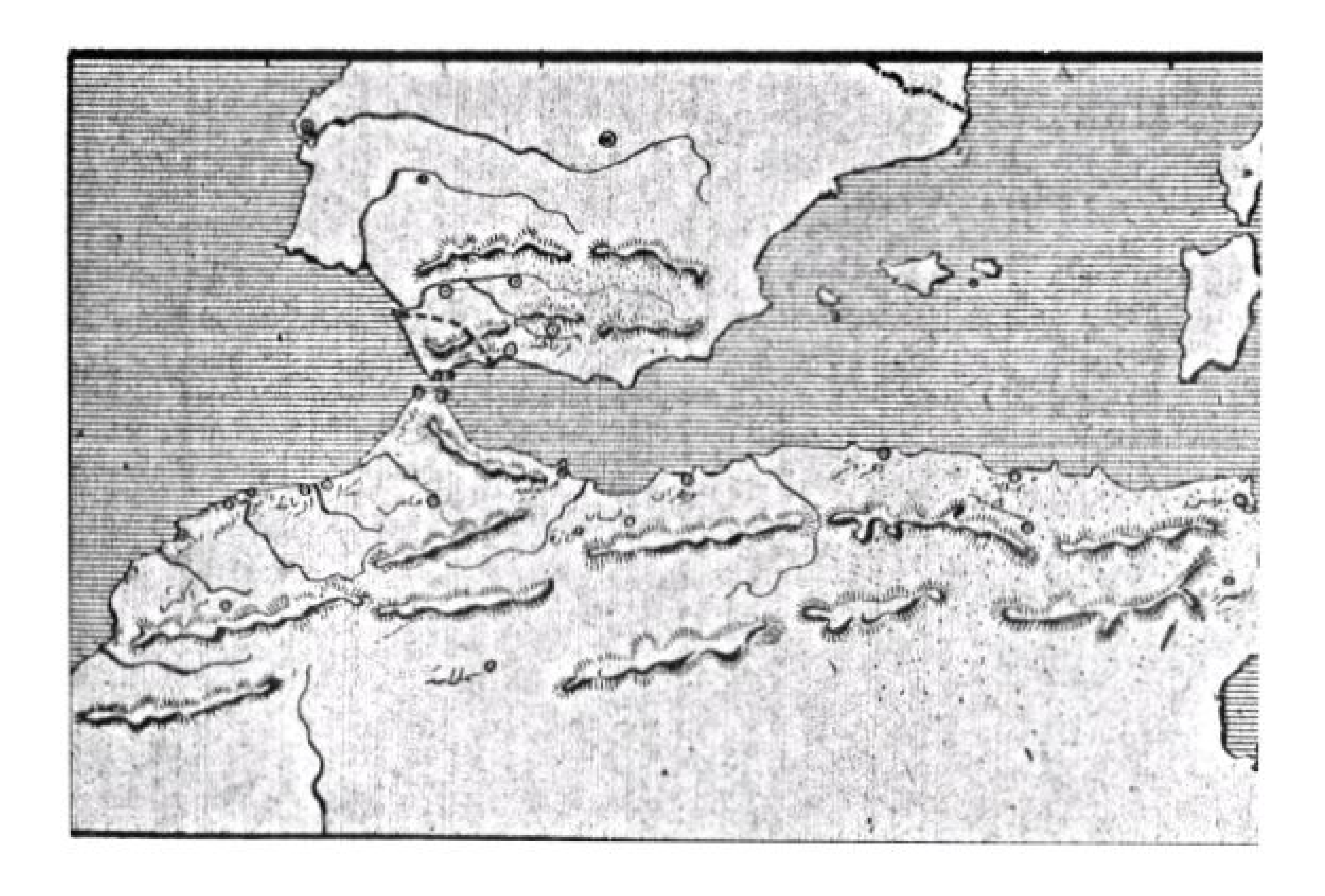
وبهذا تعلم ما قلنا من أن أبا الحسن لم يكن محظوظاً مع ما كان عليه من علو الهمة وشدة البأس.

وهكذا كان حاله في إفريقيا فإنه فتح تلمسان التي امتنعت على أبيه وجده وعمه يوسف الناصر مع طول محاصرتهم لها، وقتل ملكها أبا تاشفين سنة 737 وبذلك دخلت إيالة بني زيان من المغرب الأوسط كلها في مملكته.

ثم استولى بعد ذلك على بقية الشمال الإفريقي ودخل تونس سنة 738 فانقرض ملك الحفصيين أصحابها وانتظم سلطانه كامل شمال إفريقيا كما قدمناه، إلا أنه لم يهنأ بذلك حيث شغب عليه العرب من بني سليم وهلال لأنهم اعتادوا من ملوك بني حفص أن لا يمنعوهم من عيث أرادوه وأن يقطعوهم الإقطاعات الكثيرة في الضواحي والأمصار، فلما جاء أبو الحسن وكان من الضبط والحزم بمكان مكين، ضرب على أيديهم وانتزع منهم تلك الإقطاعات وسلك بهم سبيل العرب الذين بالمغرب من لزوم الطاعة والإخلاد إلى السكون، فضاقوا بذلك ذرعاً ورفعوا علم العصيان.

وتتابع انتقاض الأطراف فقامت قسنطينة بدعوة بني حفص وتلمسان بدعوة بني زيان وكثرت الفتوق وجاء الطاعون الجارف فقضى على كثير من حاشية السلطان حتى أرجف الناس بموته وعميت أنباؤه على أهل المغرب، فقام ابنه أبو عنان يجمع شتات المملكة. دعا لنفسه فبايعه الناس سنة 749.

مملكة بني مرين



تمثل هذه الخريطة

المملكة المرينية وخاصة على عهد السلطان أبي الحسن

ولما وصل النبأ إلى أبي الحسن أجمع الرجوع إلى المغرب فركب أساطيله وكانت تزيد على 500 قطعة فجاء سوء الحظ أيضاً وعصف بتلك المراكب فغرقت عن آخرها ومضى شهيد الغرق كثير من رجالات المغرب وخاصة العلماء الذين كان أبو الحسن لا يستغني عنهم وعددهم نحو 400 عالم ونجا هو على لوح.

ولما وصل إلى المغرب لم ينزل له ابنه أبو عنان عن الملك فتقاتلا وكانت الدائرة على الوالد المسكين الذي كانت أيامه في أدبار، ثم تصالحا وتنازل أبو الحسن لولده عن الملك وأقام منزوياً بجبل هنتاتة إلى أن وافاه أجله في عام 752 فنقله ابنه أبو عنان إلى شالة ودفنه مع ملوك بني مرين.

وقد أظهر أبو الحسن في كل هذه المواقف من ضروب الشجاعة والثبات ما هو خليق بالأبطال أمثاله، ومع ذلك فإن عظمته لا تتمثل في هذه الأعمال الحربية فقط، بل في المنشآت العمومية كالمدارس والمساجد والربط، فمنها المدرسة العظمى بمراكش المعروفة بمدرسة ابن يوسف، ومنها المدرسة العظمى بطالعة سلا وكلاهما على غاية من الفخامة والزخرفة لا تدرك، ومنها المدرسة الجديدة بمكناس وكان قد استغلى ما صُرف في بنائها فلما وقف عليها وأعجبته، أخذ حسابها وغرقه في صهريجها وأنشد:

لا بأس بالغالي إذا قيل حسن ليس لما قرَّت به العين ثمن

وله بفاس آثار أخرى. وكانت العلاقات بينه وبين ملوك الشرق على أحسن ما يرام، فالمراسلات بينه وبين ملوك مصر الناصر بن

قلاوون وابنه أبي الفدا متصلة. وكان قد كتب بخطه ثلاثة مصاحف وجمع لها القرّاء والخطاطين والمجلدين والمذهبين والنقاشين وأخرجها في حلَّة فريدة من الفن المغربي البديع وأرسلها وقفاً على المساجد الثلاثة المقدسة وأوقف عليها من الضياع والرباع ما يقوم بكفاية القائمين عليها والقارئين فيها.

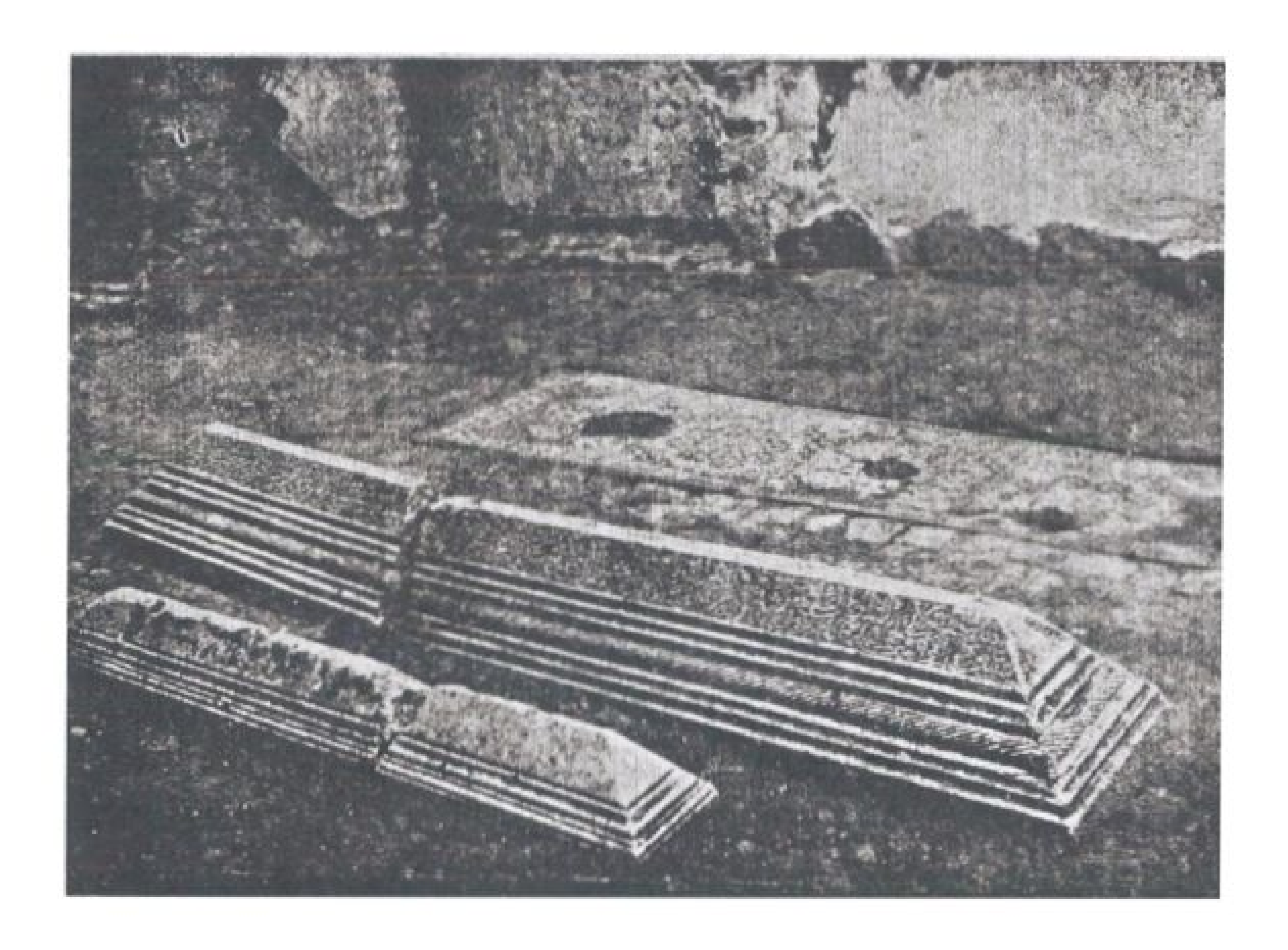
إلى غير ذلك من مآثره، ومن شعره الذي يشفّ عن نفسه الكبيرة:

أرضي اللَّه في سري وجهري وأحمي العرض من دنس ارتياب
وأعطي الوفر من مالي اختيارا واضرب بالسيوف طُلى الرقاب

من المدارس المرينية بمراكش



صورة تمثل منظرًا من مدرسة ابن يوسف الشهيرة



قبر السلطان أبي الحسن المريني ورخامته
بمقبرة الملوك المرينيين في شالة قرب مدينة الرباط

ـ أبو عنان ـ

هو السلطان أبو عنان فارس بن أبي الحسن تولى في حياة والده على ما تقدم. وكان فارساً كاسمه شجاعاً مقداماً حسن السياسة والتدبير، فقيهاً عالماً بالمنطق والأصول والعربية والحساب، حافظاً القرآن والحديث، عارفاً بعلومهما، فصيح القلم شاعراً مجيداً، من شعره قوله:

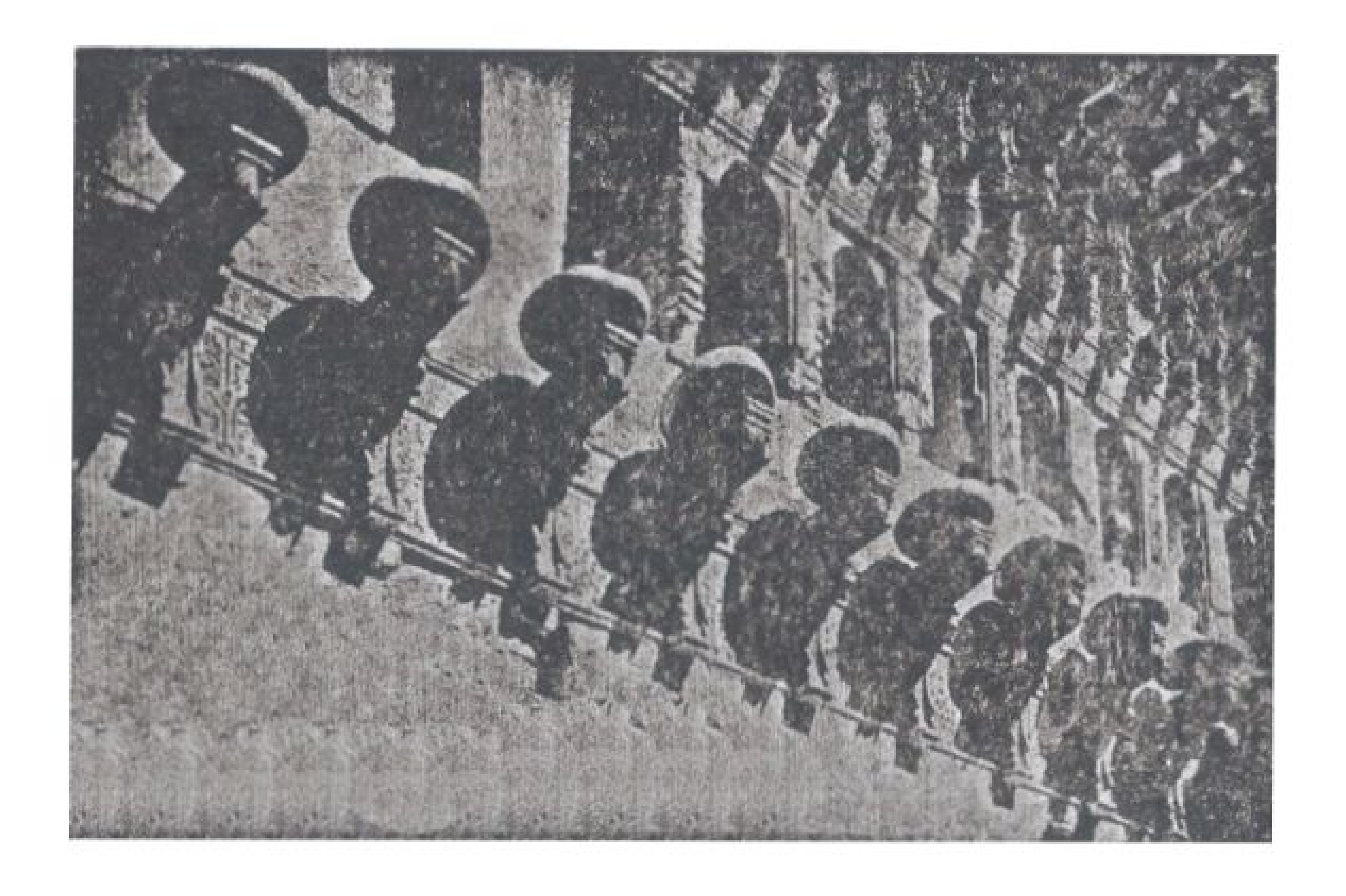
وإذا تصدر للرياسة جاهل   جرت الأمور على الطريق الأعوج

ولما استدف له ملك المغرب بعد وفاة أبيه ولم يبق له منازع سما نظره إلى توحيد إفريقيا الشمالية وإعادة فتح تلمسان وتونس بعد ثورتهما على والده.

ففي سنة 753 نهض يريد تلمسان في جيش كثيف فاصطدم هو وصاحبها أبو سعيد الزياني ثم تغلب عليه وقتله ودخل تلمسان فتتبع شيعة أبي سعيد وكل من كان له صاغية إلى بني زيان، حتى صفا له ملك القطر الجزائري فضبطه وثقف أطرافه ورجع إلى المغرب.

وفي سنة 758 شخص إلى الجزائر يريد إتمام فتح الشمال الإفريقي فنازل قسنطينة وكانت تحت إمارة الحفصيين فأذعنت لطاعته ثم سرح جيشه جهة تونس وبعث أسطوله فنازلها بحراً ولم تنشب أن سقطت في قبضته، فجعل يعالج أمر العرب ويحاول إخضاعهم للطاعة، ولما لم تستقم له قناتهم وأحس منهم بالخطر الذي أصاب والده من قبل، كرَّ راجعاً إلى المغرب.

من الآثار المرينية



صورة تمثل أجراس الساعة
التاريخية الشهيرة التي ركبت بواجهة المدرسة العنانية

ومن السنة الموالية برز إلى تلمسان وسرح إليهم وزيره سليمان ابن داود في عسكر مجر فجاس خلال ديارهم واستعان بمن أطاع منهم على من عصى حتى خضد شوكتهم وقلم أظفارهم.

ورجع السلطان إلى دار ملكه بفاس حيث مرض ومات مخنوقاً في 28 حجة متم عام 759 وهو ابن 30 سنة. دخل إليه وزيره الحسن ابن عمر الفودودي بمكانه من قصره وهو مريض فغطه حتى أتلفه. وكان بينه وبين ولي العهد أبي زيان محمد بن أبي عنان نفرة مستحكمة فسعى في تحويل الأمر عنه إلى أخيه أبي بكر السعيد وهو طفل خماسي وارتكب هذا الإجرام الفظيع.

وخلف السلطان أبو عنان آثاراً شاهدة بعظمته وعلو قدره كمدرسة العنانية وهي قطعة خالدة من الفن المعماري الجميل، وأما الساعة التي كانت مركبة بواجهتها وبقيت أجراسها معطلة إلى الآن فهي من أعظم الآيات على ما بلغت إليه الصناعة المغربية من الدقة والإتقان. وهذا السلطان هو الذي أمر بنصب العلم في المآذن نهاراً وإيقاد السرج ليلاً ليعرف الناس أوقات الصلوات عن بعد وذلك من شدة اعتنائه بأمور الدين.

هذا ومن تاريخ وفاة أبي عنان أخذت دولة بني مرين في التلاشي وعظم استبداد الوزراء على الملوك، فمنهم من كانوا يضربون على يده فلا يتركون له من الأمر شيئاً، ومنهم من كانوا يقتلونه إذ أخافوا من بادرته، وهكذا حتى ثارت الأمة على آخر ملوك بني مرين لظلمه وعسفه وخلعته وحكمت عليه بالموت فأعدم صبيحة

يوم الجمعة 27 رمضان سنة 869 وأقاموا ملكاً عليهم الشريف أبا عبد الله الحفيد فبقي ريثما قامت الدولة الوطاسية التي خلفت دولة بني مرين والملك لله.

المغرب في عهد بني مرين

انتشرت المعارف في هذا العهد انتشاراً طائلاً وصار أبناء المغرب من شتى القبائل يتنافسون في الدراسة والتحصيل ونبغ أفراد عديدون في كثير من فروع العلم رفعوا رأس المغرب عالياً في هذا الميدان.

فبينما كان رجال الدولة في منازعاتهم وحروبهم كان رجال الثقافة يعملون على توطيد مجد المغرب في عالم الأدب والعرفان، وذاك وأبيك المجد الحقيقي الذي تذهب الفتوحات وتدول الدول وهو لا يذهب ولا يدول.

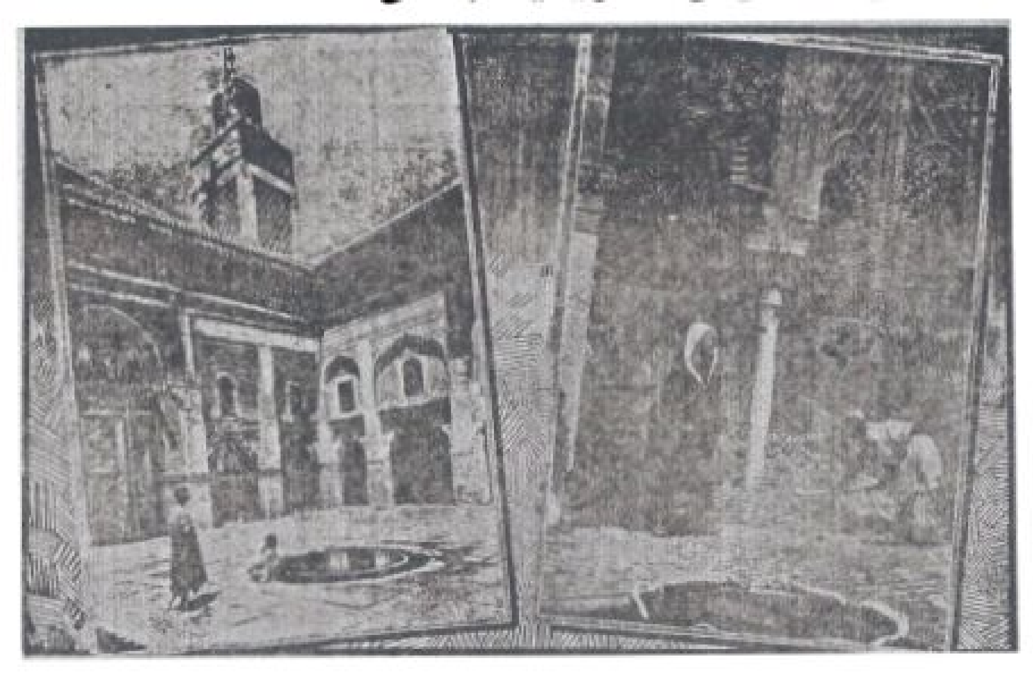
وهذه الظاهرة وهي نشاط الحركة العلمية بين الشعب من تلقاء نفسها مع كون القائمين بها من أبناء المغرب الأقحاح، هي التي مكنت للمعرفة أن تبقى رائجة السوق ولو بعد ضعف الدولة وصيرورتها إلى الاضمحلال، وتأمل في أمر واحد وهو ما ألمعنا إليه من قبل في حادث غرق أسطول السلطان أبي الحسن المريني حيث ذكرنا أن جملة من غرق فيه أربعمائة عالم ممن كان السلطان قد صحبهم في حملته تلك على شمال إفريقيا، وعادة لا يصحب السلطان إلا جهابذة أهل العلم. فإذا كان عدد من صحب السلطان

منهم أربعمائة عالم فما ظنك بمن لم يصحبه وبمن لم يكن في طبقتهم؟ ولا تعني أن الدولة لم يكن لها يد في نشر المعارف وتشجيع رجالها بل أنها ما قصرت في هذا الصدد حتى ليسمونها دولة العلم وذلك لما أثلته من المآثر الجليلة والمناقب الحميدة كبناء المدارس وترتيب المدرّسين بها في كافة أنحاء المغرب وبناء الخزائن العلمية الملحقة بالقرويين وتحبيس الكتب العديدة عليها. وإن الفخر والإعجاب ليبلغان حدهما الأقصى ولا يفيان بحق المدرستين العديمتي النظير بفاس، مدرسة العطارين التي بناها السلطان أبو سعيد ابن المنصور والمدرسة العنانية التي بناها السلطان أبو عنان بن أبي الحسن فضلاً عن غيرهما في غير فاس.

وبالاختصار فإن في هذا العهد كان الشعب مندفعاً بنفسه إلى الجري في ميدان التحصيل، والدولة لا تألو جهداً في تشجيع الشعب بما يجعله عظيم الرغبة في هذا السبيل.

ولا بد أن نشير إلى أن أكثر العلوم انتشاراً في هذا العهد وأخصها بالعناية هو علم الفقه والأحكام، فإنه قد توسع فيه توسعاً عظيماً لم يعهد فيما مضى من العصور ولا فيما أتى بعد. ثم علوم اللغة العربية والأدب، فأشهر نحاة المغرب وهو ابن آجروم وأشهر شعراء المغرب هو مالك ابن المرحل، كلاهما من رجال هذا العهد على أن العلوم الكونية وخصوصاً الرياضيات قد كانت في هذا العصر أيضاً منتشرة جداً، وأشهر رياضي مغربي وهو أحمد بن البناء العددي كان من علماء هذا العصر.

من المدارس المرينية بفاس



يرى عن اليمين منظر من مدرسة العطارين
وعن اليسار منظر من المدرسة العنانية



المدرسة العنانية من الداخل

وأما عن الحياة الاجتماعية وأحوال المعاش فقد كان المغرب يمرح في بحبوحة من الخفض والدعة لتوفر أسباب العيش والمواد الحيوية حتى أنها في بعض الأوقات كادت تكون بغير ثمن. وكانت مظاهر الحضارة والترف قد عمت البادية بَلْهَ الحاضرة. ولكن مع حفظ التجمل وغلبة الوقار. وإنا لنستدل بحادثة واحدة على أن ما كان شائعاً في بلاد أخرى كالأندلس من الاستهتار وقلة التصون لم يكن ممكن الوقوع في المغرب، وتلك هي حادثة سفير غرناطة الذي سكر فحده قاضي فاس أبو الحسن الصغير حد الشرب ولم يراع فيه إلا ولا ذمة. ولما شكا إلى الوزير ورام هذا أن ينتقم له من القاضي غضب السلطان لذلك وانتقم من الوزير.

وهكذا كانت أحكام القضاة منطبقة على الشريعة الإسلامية ولا يمكن أن تعقب من سلطان ولا وزير. ناهيك بمن كان يتولى القضاء في هذا العهد من فطاحل العلماء الذين لا يرضى أحد منهم أن يكون آلة في يد غيره على أن السلاطين أنفسهم كانوا في الغالب من رجال العدل والإنصاف. وما عُرف التسلط في هذه الدولة إلا عن بعض الوزراء المستبدين وآخر سلاطينها عبد الحق الذي ثارت به العامة وقضت على دولته.

وفي هذا العهد بلغ استعراب المغرب وقبائله إلى الحد الذي لم يبلغه قط، وكان عمل الدولة كله في دائرة العروبة، واشتدت وصلة المغرب شعباً ودولة ببلاد الشرق العربي بالرحلات والمكاتبات وتبادل الهدايا بين الملوك، وبلغ الأمر إلى إن شرفاء مكة بايعوا

سلطان المغرب، ويشير ابن خلدون إلى شيء من ذلك فيقول: «وأما لهذا العهد وهو آخر المائة الثامنة فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه وتبدلت بالجملة، واعتاض من أجيال البربر أهله على القدم بمن طرأ فيه من لدن المائة الخامسة من أجيال العرب بما كثروهم وغلبوهم وانتزعوا منهم عامة الأوطان وشاركوهم فيما بقي من البلدان.

على أنه يذكر بعد ذلك انتقاص عمران البلاد وذهاب الحضارة بسبب الطاعون الجارف الذي عم الأرض شرقاً وغرباً في منتصف القرن الثامن وكان من نتائجه فتور العزائم وضعف الهمم في البلاد الإسلامية جمعاء.

المغرب والدفاع عن الأندلس

المغرب هو الذي فتح الأندلس، والمغرب هو الذي بقي حاملاً راية الدفاع عنها مدى أربعة قرون. ولكن منذ وقعة العقاب إلى أن جاز المنصور المريني جوازه الأول للجهاد في الأندلس وقع تكالب كبير من الإسبان على المسلمين فسقطت قرطبة وإشبيلية وما ضاهاهما من القواعد الكبرى، وانحصرت مملكة الإسلام في رقعة ضيقة جداً هي غرناطة وما والاها، على أنه بعد أن قامت دولة بني مرين بمهمة الجهاد في الأندلس لم تقع وقعة فاصلة بين الإسلام والنصرانية من طراز وقعة الزلاقة والأرك ولم تسترد قاعدة من قواعد الإسلام في تلك الديار.

وكان بنو مرين لا يحشدون كل قواتهم للعمل في الأندلس لأنهم كانوا مهتمين أكثر بالعمل في إفريقيا الشمالية، فضلاً عن أن بني الأحمر ملوك غرناطة ويقال لهم أيضاً بنو نصر كانوا لا يخلصون النية لبني مرين خوفاً منهم على ملكهم. فكانوا كلما توغلوا في بلاد العدو وانتصروا عليه يدسون لهم الدسائس في المغرب ويحرضون عليهم أعداءهم من ملوك بني زيان ويهادنون العدو أو يحالفونه عليهم وربما قطعوا عليهم خط الرجعة وحشروا أسطولهم مع أسطول العدو في بحر الزقاق ليقطعوا عنهم الميرة والمدد، ويعوقوهم عن العود إلى بلادهم، وقد مرت الإشارة إلى شيء من ذلك في الكلام على حركات المنصور المريني.

ومع ذلك فإن بني مرين كانوا من سعة الصدر والحلم بحيث لم ينقطعوا عن العمل ولم تفسد نياتهم في الجهاد بل رتبوا على أنفسهم مباكرة العدو مراوحته بالقتال في قعر داره. وكانت لهم قوات مرابطة في نحر العدو لا تفتأ تكف عاديته عن المسلمين. وكانت مشيخة المجاهدين من الرتب العالية والمحترمة جداً لا يولاها إلا الأبطال الأنجاد والأشخاص المحترمون وربما كانوا من الأسرة المالكة نفسها.

وعلى كل حال فإن أهم الحركات التي وقعت بعد حروب المنصور المريني المتقدمة الذكر هي حركة ابنه يوسف الناصر لما نقض شانجة الصلح الذي كان عقده مع المنصور، وكانت وقعة منصورة في البر والبحر تظاهر على أثرها ابن الأحمر وشانجة لمنع

يوسف الناصر من الجواز مرة أخرى إلى الأندلس وسقطت بسبب ذلك طريف في يد العدو سنة 691 وكان ابن الأحمر طامعاً في الاستئثار بها لنفسه فلم يمكنه حليفه من ذلك. وقد بقيت من هذا الوقت وهي شجي في حلق المسلمين.

ولما راجع ابن الأحمر بصيرته ندم على ما فعل وتقدم بالرغبة في الصلح إلى يوسف الناصر فصالحه وأمده بجيش لمحاصرة طريف لكنه لم يحصل منها على طائل. ثم كان أن نازلها أبو الحسن المريني بعد ذلك فهزم شر هزيمة واستولى العدو بعد على الجزيرة الخضراء كما تقدم، إنما هذه في إحدى الفرص الثمينة على حين نشوب فتنة بأرض العدو، أطبقت كلمة ابن الأحمر والسلطان أبي فارس عبد العزيز بن أبي الحسن المريني فنازلها المسلمون وضيقوا عليها الحصار حتى استسلمت وعادت إلى حظيرة الإسلام في سنة 770 وكم من فرصة مثلها ضيعها المسلمون بتخاصمهم وتخاذلهم، ولولا ذلك لما جرى عليهم ما جرى من القهر والغلبة.

ومن أغرب الوقائع التي جرت على يدي المجاهدين من بني مرين وقعة مرج غرناطة. وذلك أن العدو خرج إلى بلاد الإسلام في أكمل أهبة وأعظم استعداد وأصفقت كلمة ملوكه ورؤسائه على تدويخ مملكة غرناطة وطرد المسلمين عن أرض الجزيرة. ولما نزلوا بمرج غرناطة دهى المسلمين منهم ما لا قبل لهم به. وبينما الأمر على أشده عمد شيخ الغزاة من بني مرين وهو عثمان بن أبي العلاء إلى جماعة جنده واختار منهم نحو المائتين واهتبل الفرصة في العدو

وتقدم بهم نحو جيشه فظن النصارى أنهم أتوا لمفاوضة أو إبلاغ رسالة حتى إذا سامتوا موقف وصي الملك وهو بطره بن سانجة وأخيه جوان صمموا نحوهما حتى خالطوهما في مراكزهما فصرعوهما في جملة من الحاشية وانهزم ذلك الجمع من حينه وولوا الأدبار واعترضهم من ورائهم مسارب الماء للشرب على نهر شنيل فتطارحوا فيها وهلك أكثرهم واكتسحت أموالهم وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيام. وخرج أهل غرناطة لجمع الأموال وأخذ الأسرى فاستولوا على شيء كثير من ذلك. وكان في جملة الأسرى امرأة الوصي الهالك وأولاده فيقال أنها بذلت في نفسها مدينة طريف وجبل طارق وثمانية عشر حصناً فلم يقبل المسلمون. وكانت هذه الوقعة في 5 جمادى الأولى سنة 719.

وعثمان بن أبي العلاء هذا من الشخصيات البارزة في الجهاد وأحفاد الملوك من بني مرين، ومكانه من الصرامة وشدة البأس لا يدانيه فيه أحد. توفي سنة 730 عن 88 سنة أنفقها ما بين روحة في سبيل الله وغدوة حتى استوفى في المشهور 732 غزوة رحمه الله.

وقد علمت إن هذا كان في أول الأمر والدولة في عنفوان شبابها والمغرب لا زال محتفظاً بالكثير من قوته، ولكن لما حال الحال وتراجع أمر المغرب في حين أن أمر العدو كان إلى تقدم وكلمتهم إلى جمع لم يبق في طوق المغرب أن يقوم بمهمته التقليدية من الدفاع عن أرض الجزيرة. كيف وقد شورك في أرضه إذ نزل البرتغال بمدينة سبتة عام 818 فلم يتأتَّ إخراجه منها. وكان قد

أمر أمر هذه الدولة فعزت بعد الذلة وكثرت بعد القلة، ثم في سنة 869 استولى على مدينة طنجة بعد أن دُوفع عنها بشدة ولكن من غير جدوى. وهكذا كانت بوادر الفاجعة تنذر بالخطر والأمر لله.

ــ أسئلة ــ

1) من هم بنو مرين؟
2) أين كانت مواطن زناتة؟
3) كيف كان دخول بني مرين إلى المغرب؟
4) من كان أميرهم حينذاك وما هي صفاته؟
5) من الذي قضى منهم على دولة الموحدين وفي أي سنة؟
6) متى تولى يعقوب المنصور الملك؟
7) ما هي أوصافه ومآثره؟
8) كم جاز إلى الأندلس برسم الجهاد وما كانت نتيجة ذلك؟
9) متى توفي؟
10) ما هي أوصاف أبي الحسن المريني وبماذا يُعرف؟
11) ما هو أول فتح له؟
12) في أي معركة أخرى انتصر على العدو؟
13) متى فتح تلمسان؟
14) متى استولى على تونس؟
15) لماذا لم يستدف له ملك إفريقيا؟

16) ما الذي أزعجه عن إفريقيا إلى المغرب وماذا وقع له أثناء رجوعه؟

17) ما هي مآثره؟

18) كيف كانت علاقته بممالك الشرق؟

19) ما سنة وفاته؟

20) متى تولى أبو عنان وما هي صفاته؟

21) لماذا أعاد فتح تلمسان وتونس؟

22) كيف كانت وفاته وفي أي سنة؟

23) ما هي مآثره؟

24) ماذا طرأ على الدولة المرينية بعد وفاة أبي عنان وما السبب في ذلك؟

25) كيف كانت حالة الاجتماع بالمغرب في عهد بني مرين؟

26) ما هي حال المعارف العمومية في هذا العهد؟

27) كيف كانت العلائق بين المغرب والمشرق؟

28) ما الذي طرأ على البلاد الإسلامية في هذا العهد فانتقص عمرانها وكان سبباً في ضعف حالتها المعنوية؟

29) ماذا كان عمل بني مرين في الأندلس؟

30) كيف كان موقف بني الأحمر بإزائهم؟

31) من هو عثمان بن أبي العلاء؟

32) ما هي أهم وقائعه بالأندلس وكم عدد غزواته؟

الدولة الوطاسية

بنو وطاس فرقة من بني مرين دخلوا المغرب معهم ونزلوا بلاد الريف وكانوا يسمون إلى الرياسة فتولوا الوزارة في الدولة المرينية وحمد أثرهم فيها. ثم أن السلطان عبد الحق المريني آخر بني مرين سطا بهم سطوة برمكية لما آنس منهم من الاستبداد عليه، فقبض منهم على الوزير يحيى وأخويه أبي بكر وأبي شامة وقتلهم في جملة من قرابتهم وأفلت منه محمد الشيخ أخو الوزير يحيى كان خرج للصيد فلما اتصل به الخبر فرَّ إلى منجاتة حيث كان من قدر الله أنه سيرث دولة بني مرين ويؤسس على أنقاضها دولة بني وطاس.

واستقر محمد الشيخ ببلاد الهبط فواتته الفرصة في أصيلا فامتلكها. وأمر أمره فتشوفت إليه الأعيان من أهل فاس ورؤساء دولة السلطان عبد الحق المخلوع. ولما قتل السلطان المذكور وبويع بفاس للشريف أبي عبد الله الحفيد العمراني كما سبق القول شمَّر محمد الشيخ عن ساعديه وعقد العزم على استخلاص ملك المغرب لنفسه فقصد فاس واستولى عليها في رمضان 876 وخرج الحفيد عنها فتوجه هو وأولاده إلى تونس، وبذلك انتقلت الدولة إلى بني وطاس.

وكان محمد الشيخ شجاعاً مقداماً وسياسيًّا حازماً غير أن ما كان يواجهه من المشاكل حين ولايته لم يكن مما تنفع فيه شجاعة ولا سياسة، فمنها الفتن الداخلية التي كان بحرها طامياً بالمغرب وحسبك أن ثورة عمرو السياف بالجنوب دامت نحو العشرين عاماً. ومنها نزول البرتغال بشواطئ المغرب واستيلاؤه على أهم ثغوره كسبتة وطنجة، وهاتان من أيام المرينيين، وأصيلا وقد استولى عليها بعد خروج محمد الشيخ منها وقصده إلى فاس، والبريجة وهي حصن بمحل ثغر الجديدة الذي كانوا هم البانين له بعد إلى غير ذلك. وقد كانت بعوثهم وسراياهم تنبث في أطراف البلاد المجاورة وتعيث في الأرض فساداً، ولا يشك أحد أنها كانت تستعد للانسياح في داخل المغرب وبسط سلطانها على كامل البلاد.

ومنها سقوط مملكة غرناطة في يد الإسبان وانهيار آخر معقل للدولة الإسلامية في بلاد الأندلس وقدوم أهلها مع سلطانهم ابن الأحمر مغرَّبين إلى المغرب سنة 897 وقد كانت هذه الواقعة وحدها كافية في بلبلة الأفكار وإثارة الاضطرابات فضلاً عما تحدثه في الأمة هي والوقائع قبلها من ضعف الهمة وانحلال العزيمة.

ومع ذلك فقد تألفت في هذه الفترة الرهيبة من تاريخ المغرب جماعات من ذوي الغيرة الإسلامية والحمية الوطنية جعلت وكدها الدفاع عن حقيقة البلاد وإيقاف العدو المغير عند حدِّه. وقد أبلت في ذلك إلى جانب السلطان محمد الشيخ الوطاسي بلاءً حسناً.

ومن هذه جماعة الأشراف العلميين، بني راشد، الذين بنوا مدينة

شفشاون سنة 876 بقصد تحصين المسلمين من نصارى سبتة الذين كانوا كثيراً ما يتطاولون على أهل تلك الجهات.

ومنها جماعة الأندلسيين الذين عمَّروا تطوان بعد خرابها وكانوا قدموا على السلطان محمد الشيخ فأنزلهم بها وولى عليهم كبيرهم أبا الحسن المنظري، وهو رجل شجاع من كبار جند ابن الأحمر فما فتئ يشن الغارات على نصارى سبتة وبلاد الهبط.

ومنها جماعة أهل زمور وكانوا في حرب دائمة مع نصارى الجديدة إلى غير ذلك. ولكن كل هذه الجهود إنما كانت تخفف وطأة العدو على البلاد ولم تزحزحه عن مركز من المراكز التي احتلها.

ومات السلطان محمد الشيخ في سنة 910 فولى ولده محمد البرتغالي، عرف بذلك لأنه كان وقع في أسر البرتغال لما أخذوا ثغر أصيلا وبقي عندهم نحوا من 7 سنين ثم أفتكه والده. وفي مبدأ ولايته استولى البرتغال على ثغر العرائش ثم على ثغر آسفي وعظمت بذلك الفاجعة فتجهز السلطان للزحف على ثغر أصيلا الذي كان أسيراً فيه عند البرتغال فاقتحمه عليهم سنة 914 ثم جاءهم المدد من طنجة وجبل طارق فأخلاها المسلمون. وقد بذل هذا السلطان جهداً كبيراً في جهاد العدو وترديد الغزو إليه والإجلاب عليه حتى شُغل بذلك عن البلاد المراكشية ونواحيها فكان ذلك سبباً لظهور الدولة السعدية بها سنة 915.

واستمر الحال على ما ذكر من امتلاك العدو لسواحل المغرب وضعف معنوية الشعب إلى أن انقرضت الدولة الوطاسية سنة 961 وخلفتها الدولة السعدية التي جددت من قوة المغرب ما بعث

الاطمئنان إلى النفس.

وفي الحقيقة أن هذه الدولة إنما كانت ذنباً طويلاً للدولة المرينية يجري عليها ما يجري على أعقاب الدول من مصاحبة الفشل ومعاناة العثار ولذلك فإن المغرب لم يرفع رأساً من الانتكاس الذي أصابه في أواخر أيام المرينيين إلى أن قامت دولة السعديين وإن كان هذا لا يجري مع المثل الشعبي الذي نحسب أن قائله كان من خصوم السعديين وهو: (من بعد بني مرين وبني وطاس ما بقي ناس).

واعلم أنه في هذا العصر بدأ انحطاط المغرب وتبدلت حاله بما لم يكن عليه من قبل. فمن ذلك أن الأجانب احتلوا أرضه واستباحوا حماه ولم يكونوا يطمعون في ذلك قبل إذ كان هو الذي يهاجمهم في بلادهم ويحاربهم في عقر دارهم. ثم أن بعض المدن التي أخذت في هذا العصر لم يقع استردادها بعد ولو في عهد كبار السلاطين الذين تولوا من بعد. وبذلك تدرك الفرق بين هذه الدول والدول المتقدمة.

ومن ذلك أن المملكة المغربية انكمشت وانحصرت في هذه الرقمة الصغيرة بعد أن كانت تشمل الجزائر وتونس والأندلس في كثير من الأحيان، وفي عهد الدول الصغيرة كالأدارسة ومغراوة كانت تحتضن تلمسان وناحيتها على الأقل.

ومن ذلك قوة الاعتقاد في الصالحين وتصرفهم الروحي حتى أدّى الحال إلى أن خلع الناس عليهم حلة الولاء للعدو وهم لا يشعرون. فابن سليمان الجزولي لما أخرجه والي آسفى دعا عليها ـ لا عليه ـ فأخذها النصارى، وغيره كان يولي ويعزل من يشاء، وآخر يريد

استمرار الفتنة بين المسلمين فيكن ما أراد. وهذه أمور لا تصح نسبتها إلى عباد الله الصالحين وإنما هي من نتائج حرب الأعصاب التي كان يقوم بها المغرضون، وصادف الحال أن عموم الشعب كان في ذلك الوقت متزلزل العقيدة منحل الإرادة بما شاهد من انهيار مملكة الأندلس ومغالبة العدو له فلجأ إلى التعلل بالأماني والتعليل بالخرافات، وما دام المسلمون لم ينهجوا نهج سلفهم الصالح في إخلاص التوحيد لله عزَّ وجلَّ والأخذ بأحكام الشريعة كما جاءت من غير تأويل فإنهم لا تقوم لهم قائمة. وقد قال الإمام مالك رحمه الله: «لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح عليه أولها».

ـ أسئلة ـ

1) ما هي أولية بني وطاس؟
2) كيف تأسست دولتهم ومتى؟
3) ما هي صفات محمد الشيخ الوطاسي؟
4) ما هي المشاكل التي واجهته حين توليته؟
5) من كان يتعاون معه على مقاومة العدو المغير؟
6) في أي سنة توفي ومن الذي تولى بعده؟
7) ما هي أهم حملة قام بها محمد البرتغالي؟
8) لماذا لم تنجح الدولة الوطاسية في مهمتها؟
9) ما الذي طرأ على المغرب في هذا العصر؟

الدولة السعدية

هذه ثاني دولة شريفة قامت في المغرب بعد الأدارسة وهم أبناء عم الأشراف العلويين ملوكنا الحاليين، ونسبتهم التي اشتهروا بها إنما هي جرى على قول خصومهم: أنهم من بني سعد بن بكر بن هوازن دفعاً لهم عن النسب الشريف، وقد أوَّل العامة ذلك على معنى السعد والحظ والنصيب فكان ذلك سبب سيرورة هذا النسب بين الناس.

وفي الواقع أن المغرب سعد في أيامهم بما بعُد عهده به منذ أيام بني مرين الزاهرة.

وفي نفس الأمر كان المغاربة أنفسهم هم الذين سعوا في تنصيب هذه الدولة، فإنه لما اشتغل الوطاسيون بمحاربة العدو المغير في شمال المغرب وثغور الهبط بقيت ناحية الجنوب وثغور السوس عورة من السهل على العدو اكتساحها في أول فرصة.

فاجتمع الناس على أبي عبد الله محمد القائم وهو أول أمير من هذه الدولة، وكان رجلاً شريفاً على جانب من العلم والدين ومقرّه بدرعة، فولّوه عليهم وترأس حركة الجهاد والدفاع عن حومة الوطن في جنوب المغرب فكان ميمون النقيبة أتاح الله له من النصر على

الأعداء ما فيه للنفوس شفاء.

وكان قيامه سنة 915 وتوفي سنة 923 فتولى بعده إبنه أبو العباس أحمد الأعرج وقد واصل خطة أبيه في مقاومة البرتغاليين حتى طهر منهم سواحل السوس وطارت بذلك شهرته في البلاد فدخلت مراكش في طاعته سنة 930 وأخلى النصارى ثغر آسفي وأزمور خوفاً من القتل والسبي، كما أخلوا أصيلا بسبب ضغط مجاهدي الهبط عليها، وبالطبع فقد كان لهذه الأعمال أثر سيئ في نفوس الوطاسيين فقاوموا ولكن بدون جدوى.

ثم إن أبا العباس هذا كان له أخ اسمه محمد الشيخ وهو وزيره وعضده الأيمن في جميع أعماله، فحدثت بينهما نفرة أوجبت الانقطاع ثم تغلب محمد الشيخ على أخيه أبي العباس فقبض عليه وأودعه السجن سنة 946 وتولى هو باسم:

محمد المهدي

ولكن لقب (الشيخ) كان غالباً عليه ففتح حصن فونتي بعد ولايته بسنة وكان بيد البرتغاليين نحو 72 سنة وبنى بقربه حصن أكادير، وكان له في اختطاطه من الوجهة الحربية رأي مصيب.

ثم أعاد فتح آسفي وأزمور وكان النصارى قد عادوا إليهما.

وبعد ذلك وجه نظره إلى شمال المغرب، فما عتم أن استولى على مكناس ثم فاس سنة 956 وتقبض على الوطاسيين أجمع ولكنه لم يقبض على آخرهم ويصفُ له ملك المغرب إلا في سنة 961.

وكان متضايقاً من الأتراك الذين خلفوا دولة بني زيان في القطر الجزائري معتقداً أن المغرب أولى بالإشراف على ذلك القطر فلهذا كان على خلاف دائم معهم. وتقدم فاستولى على تلمسان وناحيتها إلى وادي شاف سنة 957 إلا أنه لم يستقر فيها كثيراً.

وبالجملة فقد كانت همة هذا السلطان عالية ومساعيه ناجحة في الجملة، ولولا ما كان فيه من الغرور الذي أطاح برأسه لأتى منه للمغرب خير كثير.

ومما يُنتقد عليه أنه كان ذا بطش شديد وحلم قليل فقتل ثلاثة من العلماء: الونشريسي، والزقاق، وحرزوز بتهمة ممالأة الوطاسيين عليه وكان في وسعه أن يشملهم بعفوه فلا يضروه بشيء، وبطش بأرباب الزوايا بطشة كبرى لما كان يخاف من قيامهم عليه، وهؤلاء ربما يلتمس له فيهم العذر بما يظن من مداخلة بعضهم لأتراك الجزائر.

ولكنه هو الذي وطد ملك السعديين وهذبه وأدخل عليه رونق الحضارة بعدما كان جافياً بادياً، وجبى الضرائب للاستعانة بها على أمور الملك وتقوية الدولة، وسوَّى فيها بين الشريف والمشروف ولم يحاش منها أحداً.

وكان على جانب عظيم من الفقه والعلم وله بصر بالأدب وحفظ الأشعار يتمثل بها في كلامه.

ومن كلماته الحكيمة: «ينبغي للملك أن يكون طويل الأمل فإن طول الأمل وإن كان لا يحسن من غيره فهو منه صالح لأن الرعية

تصلح بطول أمله».

وأنجب أولاداً عدة منهم محمد الحرَّان وكان من النجدة والشجاعة بمكان، قتل في موقعة تلمسان.

ومنهم عبد الله الغالب وعبد الملك المعتصم وأحمد المنصور المتولُّون بعده على هذا الترتيب وعبد القادر وكان وزيراً له.

ومات مقتولاً بتدبير الأتراك في 29 حجة 964 أرسل إليه السلطان سليمان القانوني من الأستانة طائفة من رجاله فتلطفوا في الاتصال به حتى تمكنوا من اغتياله، وذلك لما كان يبلغه عنه من الاستطالة في جانبه ويتخوف من انتزائه على المغرب الأوسط.

عبد الله الغالب

كان ملكاً صالحاً وسلطاناً عادلاً ذا سياسة وتأن في الأمور صلحت به الرعية وانتعش الناس. ومن مآثره جامع الأشراف بحومة المواسين من مراكش والسقاية المتصلة به والمارستان الذي أوقف عليه أوقافاً عظيمة وانتفع به كثير من الخلق.

وفي سنة 969 حاصر مدينة الجديدة التي بناها البرتغال بمكان حصن البريجة وضيق عليها الخناق وكاد يفتحها لولا ما عرض له من خوف مهاجمة الأتراك له وكان أسطولهم يتردد في بحر الزقاق، فاضطر إلى مهادنة البرتغال بل وإلى عدم معارضة الإسبان في النزول بمرسى باديس وكانت بيد الأتراك لتنقطع بذلك مادتهم عن المغرب ولا يجدوا سبيلاً إليه.

على أنهم كانوا قد زحفوا إلى فاس براً من تلمسان بعد سنة من ولاية الغالب في جيش كثيف بقيادة حسن بن خير الدين باشا فهزمهم الغالب ورجعوا مشرَّدين في الجبال إلى أن بلغوا إلى باديس وكانت بيدهم يومئذٍ.

فأنت ترى أن الظروف السياسية لم تكن تساعد المغرب على النهوض واسترجاع مكانته بين الدول الكبرى، فالبرتغال والإسبان كانا في عنفوان قوتهما وكانت لهما عمارة بحرية هائلة، بينما كان المغرب منهوكاً بالفتن والحروب وليس له قوة بحرية.

ولما ظهرت تركيا في الشمال الإفريقي كانت تطمع في الاستيلاء على المغرب فلم يكن بدّ من مقاومتها سياسيًّا وحربيًّا، وهذه كانت خطة الغالب إلى أن مات في 28 رمضان 981.

عبد الملك المعتصم

لما توفي الغالب كان أخواه أبو مروان عبد الملك وأبو العباس أحمد ملتجئين بالجزائر خوفاً على أنفسهما منه، لأن الملك عقيم كما يقولون، فجلس على العرش ابنه محمد المتوكل فعزَّ على الأخوين انتزاع تراث أبيهما منهما ونهضا للدفاع عن حقهما فسافر أبو مروان إلى الأستانة ومثل بين يدي السلطان سليم الثاني وطلب منه أن يمده بجيش يدخل معه المغرب فينتزع الملك من ابن أخيه فلم يجبه إلى مرغوبه لاشتغاله بأمر تونس التي كان الإسبان قد استولوا عليها في ذلك الحين، فبقي هناك حتى جهَّز السلطان سليم

حملة سنان باشا التي انتزعت تونس من أيدي الإسبان فصاحبها أبو مروان وأبلى فيها بلاءً حسناً، ثم كان أول من أبلغ البشارة بالفتح إلى السلطان فجازاه على ذلك بأن أمر جيش الجزائر أن يعينه على مراده.

وهكذا تقدم إلى فاس فخرج إليه ابن أخيه بجيش سرعان ما انضم إلى أبي مروان وهرب المتوكل إلى منجاته فدخل عمه إلى فاس وبايعه الناس سنة 983 فصار ملك المغرب ولقب بالمعتصم.

وكانت تلك المدة التي قضاها بعيداً عن وطنه بالجزائر وجولته في الشرق ومشاركته في فتح تونس قد عملت عملها في تكوينه وتهيئته للمهمة العظمى التي ألقت إليه بالمقاليد الآن، فاضطلع بها أتم اضطلاع.

ومن نتائج ذلك أنه ضبط أمر الجيش ونظمه على طريقة الجيش التركي وكان هو نفسه يتزيّى بزي الترك ويجري مجراهم في كثير من شؤونه.

وكان ابن أخيه المتوكل لما شرد عن فاس قصد مراكش وجعل يجول في بلاد سوس وينتقل في قبائلها وأحيائها إلى أن التفَّت حوله عصابة قوية فقادهم إلى مراكش ودارت رحى الحرب بينه وبين عمه فهزم وفرَّ إلى جبل درن ومنه إلى باديس فأقام بها مدة ثم ذهب إلى سبتة فطنجة حيث لقي سبستيان ملك البرتغال واستنجد به على عمه، فاغتنمها هذا فرصة للتدخل في شؤون المغرب خصوصاً وقد كان ما بينه وبين المعتصم حرباً لا تنتهي حتى استرد المعتصم منه

ثغر العرائش وأخذ هو من جديد ثغر أصيلا، فنهض مع المتوكل بجيش كثيف أقل ما قيل في عدده 80,000 رجل، وتقدم يريد القصر الكبير.

فلما علم المعتصم بزحف هذا الجيش أخذ أهبته واستعد لملاقاته لكنه صار يطاول العدو مكيدة منه لكي يتوغل في داخل البلاد حتى انتهى إلى وادي المخازن بقرب القصر الكبير وتركهم السلطان إلى أن عبروا جسر النهر ونزلوا من العدوة الدنيا، فأمر بالجسر أن يهدم فهدم، وكان النهر لا مشرع له.

ثم التقى الجمعان يوم الإثنين منسلخ جمادى الأولى 986 فدارت بينهما معركة هائلة انتصر فيها المسلمون انتصاراً عظيماً وأتى القتل على غالب جيش العدو بحيث لم يفلت منه إلا القليل ومنهم الملك سبستيان والمتوكل المستنجد به.

وهذا سُلخ ومُلئ جلده تبناً، فلذلك عُرف فيما بعد بالمسلوخ، كما مات في هذا اليوم عبد الملك المعتصم ولكن ميتة طبيعية، حيث أنه كان مريضاً وحضر في الموقعة وهو محمول في محَفَّة، فكان أخوه وخليفته أبو العباس أحمد يُدبِّر الحرب ويتردد فيما بينه وبين رؤساء الجند.

ولما مات كتم موته عن الناس لئَلَّا يفت في أعضادهم حتى أتاح الله لهم الظفر بالعدو كما يريدون.

وكانت هذه الواقعة من الوقائع الفاصلة في تاريخ المغرب والبرتغال، إذ بها استحال مدُّ هذه الدولة إلى جزر، وأيقنت باستحالة

اجتياح المغرب الذي كانت ترى أنه أصبح منها على طرف الثُّمام.

المنصور الذهبي

هو أبو العباس أحمد المنصور واسطة عقد الدولة السعدية وأعظم سلاطينها على الإطلاق. بويع بعد وفاة أخيه المعتصم إثر وقعة وادي المخازن، وكان شجاعاً مقداماً حسن التدبير عظيم السياسة، فدبر الدولة وساس الرعية بحكمة وفطنة لا مزيد عليهما حتى عم العدل واستتبَّ الأمن واستبحر العمران وانتشرت المعارف وبلغ المغرب في عهده درجة رفيعة من الرقي والعظمة.

فمن حسن سيرته وكمال سياسته أنه أنشأ مجلساً شوريًا أطلق عليه اسم (الديوان) فكان هذا المجلس ينعقد في كل أربعاء من الأسبوع، وتجتمع فيه وجوه الدولة وأعيان الأمة فيتبادلون الرأي في المسائل السياسية والمصالح العامة، فلا يقطع هو في أمر حتى يأخذ برأيهم فيه.

خول المنصور لأمته بإنشائه لهذا المجلس حق التدخل في شؤون الدولة، والنظر في سير السياسة الداخلية والخارجية، فكان أعظم شاهد على ديموقراطية السلطان القوي الذي لم يشأ أن يجعل حكومته ديكتاتورية مستبدة، لأنه نظر إلى الآية الكريمة ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشّورى: الآية 38] فرأى أن التطرف عنها إجحاف بحقوق المسلمين الذين ولاه الله أمرهم وجعل إليه النظر في مصالحهم.



المنصور الذهبي

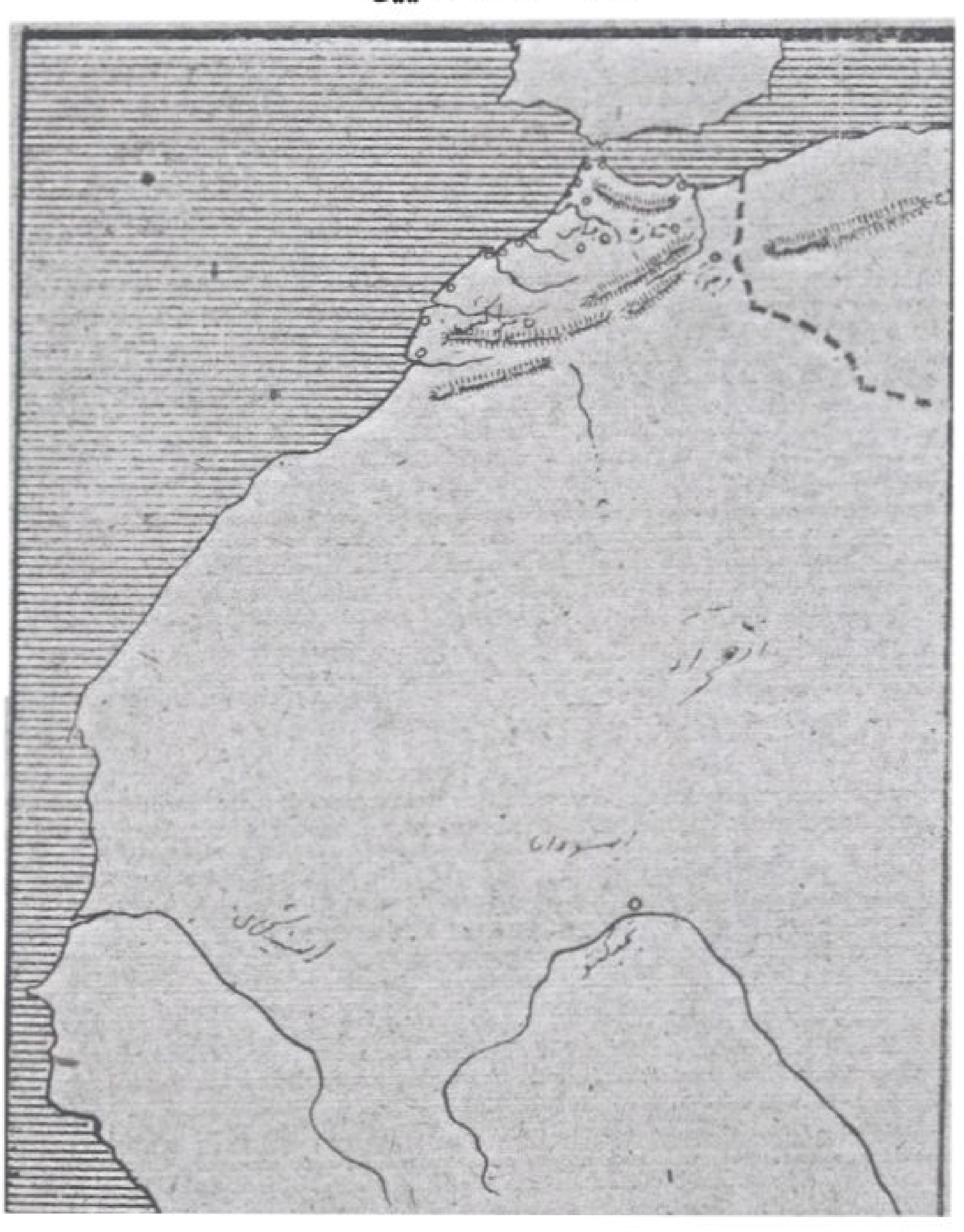
ولعمري أن أمر المغرب لا يستقيم إلا على هذا الحكم الشورى الرشيد، لأن ما طبع الله عليه أهله من حرية الفكر وإباء الضيم يأبى لهم أن يسلسوا القياد للحاكم المطلق ولو كان عادلاً.

وهذا هو السر في كثرة الثورات والخروج على السلطان غالباً في تاريخ المغرب.

ومن محمود سعيه ومشكور فعله في رفع شأن المغرب وإعادة مجده السابق أنه بعد أن رأى فائدة الجيش النظامي فيما اكتسبه من النصر الباهر بوقعة وادي المخازن وجَّه نظره إلى إصلاح أمر الجيش والاعتناء بشؤون الحربية، فأفرغ من المدافع وجهز من آلات القتال شيئاً عظيماً وأكثر من اتخاذ الجنود وعدد الضباط، وجرى في تنظيم العسكرية على نهج بديع سلك به مسلك التوفيق بين التنظيم العربي والتنظيم المستعجم الذي جنح إليه أخُوه المعتصم لما رآه بتركيا وأعجبه وكان الناس يكرهونه وقوفاً مع العوائد.

فلما تم للمنصور ما أراد من إيجاد جيش قوي منظم تعلقت همته بالفتح وتوسيع مملكة المغرب، فطمح إلى تملُّك توات وتيكورارين من بلاد الصحراء وكانت أرض فوضى قد انفصل أهلها عن حكم أي أمير وطاعة كل سلطان، فرأى هو أن يتقوى بهم ويستعين بتجنيد الجنود واتخاذ أنصار للدولة منهم، فبعث إليها جيشاً قوياً ففتحها سنة 990 وذاع صيت المنصور في أقطار السودان فأرسل إليه ملك برنو بهدية ودخل في طاعته.

مملكة السعديين



هذه الخريطة تمثل إلى أي حد بلغت
سلطة المغرب في عهد الملوك السعديين

ولقد كان صدى هذا الانتصار قوياً عند مجاهدي الهبط فقويت نفوسهم وأوقعوا بالعدو وقائع هائلة كان من نتيجتها أن أخلى ثغر أصيلا سنة 996 فعاد إلى حضن الوطن.

ثم سمت نفس المنصور إلى الاستيلاء على جميع بلاد السودان ولكنه تأخر عن ذلك حتى شاور في أمره أهل الحل والعقد والأعيان والرؤساء، فوافقوه ورضيت الأمة بذلك، وإذ ذاك قوي عزمه فاشتغل بتجهيز آلة الحرب ومُعَدات القتال وما يحتاج إليه الجيش من المؤن والمهمات في سفره، وبعث عسكراً جراراً فمضى يقطع الفيافي والقفار ثم أمدَّه بآخر حتى تم فتح السودان سنة 1000.

وهكذا امتد نفوذ المغرب في الجنوب إلى أبعد حد وصل إليه في أي عهد آخر.

وكانت هذه البلاد الشاسعة تحتوي على منابع الثروة الطائلة وكنوز الغنى الوافر حتى لقد كان الذهب يجبى إلى المنصور منها بالأحمال.

ومن تنشيطه للعلم وتشجيعه للعلماء أنه كان يأمرهم بالتأليف ويبذل لهم المكافأت السَّنيَّة على ذلك حتى قال العلّامة المنجور: «ما عهدنا بذل المئات إلا في أيام الأشراف وما عهدنا بذل الألوف إلا في أيام المنصور» على أن المنصور نفسه كان عالماً نحريراً وأديباً أريحيًّا أَلَّف كتاباً جليلاً في السياسة وله مقطعات في الشعر تنم عن رقة طبعه، بل هو أشعر ملوك المغرب قاطبة.

أما آثار المنصور في الفن والعمارة فقد يضيق عنها التعبير، ومن أعظمها قصر البديع الذي بناه في حضرة مراكش وصرف عليه أموالاً

طائلة واستغرق بناؤه من سنة 986 إلى سنة 1002 حتى جاء قصراً يكل عن وصفه اللسان.

ومنها الحصون الأربعة الهائلة التي أحدها بباب عجيسة والثاني بباب الفتوح من فاس والثالث والرابع بالعرائش، وكلها على جانب من المتانة والقوة بحيث لا يعرف قدرها إلا من وقف عليها.

ومنها مصانع السُّكّر العديدة التي أسسها بمراكش وسوس، وقد كثر وجود هذه المادة الحيوية بالمغرب في أيامه حتى كان يصدرها للخارج، وكانت إيطاليا تبادله منها بالرخام.

وبالجملة فإن هذا السلطان كان من أعاظم سلاطين المغرب وعهده مما توفَّرت فيه أسباب الراحة وزها العمران وتقدمت المعارف وفاضت الخيرات فيضاناً، وكان بدار سكتة كل يوم 1,400 مطرقة تضرب الدينار الذهبي الوهاج، وذلك عدا المصوغات والحلي، ولذلك دعي المنصور «الذهبي» وهو غاية ما يقال في وصف عصره الزاهر.

إلا أنه ويا للأسف ما كاد يغمض عينيه ويلتحق بربه في 16 ربيع الأول 1012 حتى انتثر سلك هذا النظام وعاد المغرب إلى عهد الثورات والفوضى والظلام، إذ جعل أبناء المنصور يتقاتلون على الملك ويعيثون في الأرض فساداً.

واستعان أحدهم وهو المأمون بملك الإسبان، فشرط هذا عليه تمكينه من ثغر العرائش فأعطاه إياه ولم يحصل مع ذلك على طائل.

وبقيت الفتن مشتعلة فيما بينهم فضلاً عن الثوار الذين تعددوا في هذه الفترة واشتبكوا معهم في حروب هائلة إلى أن انقرضت دولتهم سنة 1069.

وفي هذه الأثناء كان العدو المحتل بالشواطئ يقوي مركزه ويتوسع في البلاد على حساب ضعف المغاربة وتخاذلهم، فالبرتغال قد انتشروا في نواحي الجديدة وصاروا يتحكمون في المسلمين كيفما شاؤوا.

والإسبان قد امتد نفوذهم من العرائش إلى أصيلا شمالاً والمعمورة جنوباً وآذوا أهل سلا وضيقوا عليهم في المسارح والمزراع. ولولا رجال من بيوتات المغرب معروفون بالنجدة والشجاعة كانوا يذبون عن الحمى ويكفون عادية العدو لكان المغرب قد اكتسح من هذا الوقت، وهؤلاء مثل أولاد القسيس وأولاد أبي الليف والمجاهد أبي عبد الله العياشي، وكذلك يثبت المغرب دائماً أنه شعب خالد يأبى الموت، وأنه إن دالت دولته ونكست رايته ففي أبنائه البررة من يرفع رَأْسَهُ عالياً بين الشعوب ويبيض وجهه بين الأمم، ولله في خلقه شؤون.

المغرب في عهد السعديين

في هذا العهد التأمت جروح المغرب الناشئة من الاحتلال الأجنبي لشواطئه والحروب الأهلية التي لم تنقطع منذ أواخر أيام المرينيين، فالأجانب وقع صدُّهم بقوة عن داخل المغرب الذي

كانوا يمنون أنفسهم بالاستحواذ عليه، واتَّصل طردهم من الشواطئ فطُهر منهم الساحل الجنوبي بكامله، ولم يبق بيدهم من الثغور الغربية والشمالية عدا الجديدة وطنجة وسبتة وباديس، على أنه كثيراً ما وقع التضييق على هذه أيضاً وأنزل المغاربة بحاميتها ضربات شديدة.

ولولا أن الدولة كانت تتقي هجوم الأتراك على البلاد برًّا وبحراً وكانوا وقتئذٍ في عنفوان قوتهم وقد استولوا على المغربين الأدنى والأوسط لكانت عملية التطهير للشاطئ المغربي قد أتت على جميع قوات العدو النازلة بأي نقطة من التراب المغربي.

وأما الحروب الأهلية فقد خمدت ثورتها منذ أن مهد السلطان محمد الشيخ السعدي المغرب، ولم يبق إلا حوادث عادية لم يخل المغرب منها في وقت من الأوقات، لأن طبيعة المُلْك المطلق والاجتماع المبني على العصبية القبلية يستلزمانها، وكذلك كان الحال في كل بقاع العالم، وما تطهرت أوروبا من هذه الحوادث واستراحت من نتائجها الوخيمة حتى قامت الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر المسيحي وقررت حق الشعب في حكم نفسه بواسطة نوابه، وحدَّت من سلطات الملك، وجعلت لوراثة العرش نظاماً يُنهي هذا التلاعب الذي يقوم به أفراد طائشون من بيت الملك، فاطمأنت الرعية واطمأن الراعي.

وحينما يتقرر الحكم النيابي في المغرب والبلاد الإسلامية على العموم لا بد أن تنحسم مادة هذه الحروب، وتتوفر جهود الأمة

والحكومة على خدمة الصالح العام.

ثم إن حركات الفتح والتوسع التي قام بها المنصور في بلاد السودان والصحراء كان لها التأثير الحسن في نفوس العموم، فالمجاهدون قد انتعشت أرواحهم فنشطت أعمالهم في مقاومة العدو، والعلماء والأدباء قد وجدوا في حياة الأمن والدعة ما يحفزهم إلى القيام بمهمتهم التي كانوا قعدوا عنها منذ زمن بعيد، فهؤلاء نوابغ الكتاب والشعراء في بلاط المنصور الذهبي يتنافسون في القول والتأليف ويتكون منهم وسط أدبي حافل قد بُعد العهد بمثله منذ أيام أبي الحسن المريني وأبي عنان.

وناهيك منهم بعبد العزيز الفشتالي الذي يقول المنصور فيه: «نفتخر به على ملوك الأرض ونباري لسان الدين بن الخطيب» وكم له في فتوح المنصور ومبانيه من الآيات والقصائد الخالدات.

والتُّجارُ قد فُتح لهم مجال واسع لتصريف البضائع وتنمية ثرواتهم فعم البذخ وكثرت الخيرات.

وعلى كل حال فإن الشعب المغربي قد انتعش في هذا العهد وخصوصاً في أيام المنصور انتعاشاً ماديًا وأدبيًا، وكان يؤمل أن يستمر في طريق التجدد هذه حتى يطهر جميع ترابه من الاحتلال الأجنبي، بل إن أمله كان أوسع من ذلك، فإنه كان يرجو أن يعود إلى فردوسه المفقود بأرض الجزيرة الأندلسية.

ولربما كان فتح المنصور للسودان مقدمة واستعداداً لذلك.

وقد صرَّح المنصور بأمله هذا إلى بعض الخصوص في رسالة

له، ولكنه اخترم قبل أن يحقق ذلك، ولكل أجل كتاب.

ـ أسئلة ـ

1) ما هو أصل السعديين ولماذا اشتهروا بهذه النسبة؟
2) ما السبب في قيام هذه الدولة؟
3) من هو أول أمير منهم وما هي صفاته؟
4) من الذي تولى بعده وما هي أعماله؟
5) من هو الذي قضى على الدولة الوطاسية وقعد ملك السعديين؟
6) اذكر صفات السلطان محمد الشيخ؟
7) اذكر حروبه وفتوحه؟
8) كيف مات وفي أي سنة؟
9) ما هي صفات الغالب ومآثره؟
10) كيف كانت سياسته ومتى توفي؟
11) من الذي تولى بعده وهل تم له الأمر؟
12) كيف توصل المعتصم إلى الملك؟
13) ما هي أعمال المعتصم؟
14) ما هو السبب في وقعة وادي المخازن؟
15) اذكر كيف جرت هذه الوقعة وماذا كانت نتيجتها؟
16) ما هي صفات المنصور الذهبي؟

17) ما هي فتوحه؟

18) ما هو أهم عمل قام به لتنظيم الدولة؟

19) ما هي آثاره؟

20) لماذا لقب بالذهبي؟

21) متى توفي؟

22) ما الذي قضى على الدولة السعدية وفي أي سنة انقرضت؟

23) كم كانت مدة حكمها منذ أن تولت إلى أن انقرضت؟

24) من الذي كان يقوم بواجب الدفاع عن البلاد في أثناء هذه الفوضى؟

25) كيف كان المغرب في هذا العهد من الناحية المادية والأدبية؟

مقبرة الملوك السعديين



هذه الصورة تمثل أحد المناظر
الفنية البديعة بمقبرة الملوك السعديين في مراكش

الدولة العلوية

دولة ملوكنا الحاليين أدام الله عزَّهم، وهم أشراف حسنيون عرفوا بالنسبة إلى جدهم الأدنى مولاي علي الشريف، وكان قدوم سلفهم إلى المغرب من الينبع بالحجاز واستقروا بسجلماسة ومنها قامت دولتهم.

كان المغرب يعيش في فوضى شاملة منذ أواخر أيام السعديين قد تجاذب كثير من الثوار حبل السلطة فيه إلى جانب السلطة الشرعية التي يمثلها صاحب العرش، وباستثناء المجاهدين الذين كانوا قائمين بواجب الدفاع عن حقيقة البلاد، وأهل زاوية الدلاء الذين حاولوا تأسيس دولة جديدة على أنقاض دولة السعديين فإن جميع الثوار الذين قاموا في هذه الفترة إنما كانوا من ذوي الأطماع السافلة وأهل العبث والفساد.

فأما الدلائيون فإنهم كانوا أهل علم وفضل وكانت زاويتهم بتادلا مثابة الطلاب والعفاة، هؤلاء لنيل الرفد وأولئك لأخذ العلم. ثم قام منهم أبو عبد الله محمد الحاج الدلائي داعياً لنفسه في سنة 1046 وتمهد له الأمر وملك مدينة فاس ومكناس وأحوازهما وجميع القطر التادلي، إلا أن الأقدار رمته بفحل من فحول الأشراف العلويين

وهو مولاي محمد بن الشريف الذي قام في نفس الوقت بسجلماسة لرفع ظلامة كانت جرت على أبيه مولاي الشريف، فلم يلبث أن أطاعته تلك النواحي وصار منافساً قويًا لأهل الدلاء. غير أنه لم يتمكن من القضاء عليهم إلا أخوه مولاي رشيد الذي هو بحق أول ملك من هذه الدولة.

فإنه بعد أن استولى على ما كان بيد أخيه تقدم إلى فاس وحاصرها فدخلها سنة 1076 ثم أوقع بالزاوية الدلائية سنة 1079 وشرد بأهلها عنها. وفي نفس السنة استولى على مراكش وقتل صاحبها أبا بكر الشباني، وبذلك استدف له أمر الملك من غير منازع، فضرب السكة باسمه، وبنى مدرسة رأس الشراطين العظيمة بفاس وقام بغير ذلك من الأعمال المهمة. ثم توفي في 11 حجة 1082.

وكأن مهمته كانت جمع كلمة المغرب وتركيز السلطة في يد واحدة فانتهى عندها وقام أخوه مولاي إسماعيل بمهمة تنظيم الدولة وطرد الأجانب من شواطئ المغرب.

ـ مولاي إسماعيل ـ

هو السلطان المظفر أبو النصر إسماعيل بن الشريف، ولي بعد وفاة أخيه مولاي رشيد وكان حازماً ضابطاً بصيراً بسياسة الملك وتدبير أمر الدولة. فصرف عزمه من أول يوم إلى توطيد الأمن وتدعيم النظام، ثم انتدب لجهاد العدو المستولي على ثغور البلاد فسار إلى المهدية وكانت بيد الإسبان فاستخلصها منهم سنة 1092

كما استخلص طنجة من قبضة الإنجليز سنة 1095 وكانت تصيرت إليهم من البرتغال. وحاصر العرائش وكانت لنظر الإسبان منذ أن سلمها لهم المأمون السعدي ففتحها عنوة سنة 1100 كما أطردهم أيضاً من أصيلا سنة 1102 وشدد الحصار على سبتة وكان الإسبان قد أخذوها من يد البرتغال ولكنه لم يتمكن من أخذها.

وقد فرح الناس بهذه الفتوح العظيمة واسترجاع هذه الثغور المهمة فرحاً لا يكيف، وكانوا من فرط الحزن على ضياعها قد لبسوا الأحذية السُّود فبقيت في أرجلهم حتى استردها مولاي إسماعيل فانتزعوها حينئذٍ، ولبسوا هذه النعال الصفر، وفي ذلك ما يدل على قوة الشعور الوطني والحمية الإسلامية عند القوم.

ثم وجه مولاي إسماعيل نظره إلى تملك الصحراء فاستولى عليها وانتهى من تخوم السودان إلى ما وراء النيل وانتشرت دولته في عمائرها وبلغ من ذلك ما لم يبلغه المنصور الذهبي، فاشتدت بذلك شوكته وعظم صيته، وهابه ملوك أوروبا فمن دونهم.

وعنى مولاي إسماعيل بتأليف جيش العبيد اتخاذ العصبية منهم فأعد عسكراً قويًّا من جنس السواد بلغ عدده 150,000 جندي موزعة على القلاع التي بناها بجميع أنحاء المغرب للحراسة وتأمين السبل.

وجرَّد قبائل المغرب من الخيل والسلاح ولم يبق من ذلك شيئاً بيد غير العسكر ومجاهدي سبتة، فكان هذا العمل رادعاً لأهل الدعارة والفساد، قاطعاً لأملهم في الخروج على السلطان وترويع أمن البلاد.

وكان لمولاي إسماعيل ولوع كبير بمدينة مكناس فاتخذها عاصمته وشيد بها من الآثار العظيمة والمصانع الهائلة ما يقضي منه العجب، ومن جملة ذلك إصطبل واحد مساحته فرسخ في مثله كان به 12000 فرس لكل بيت فرس يخصه وسائس وخادم، إلى غير ذلك من القصور والبساتين والإهراء المعد لخزن الطعام وصهاريج الماء وكل بناء هائل، مما صارت به العاصمة الإسماعيلية من المدن الأثرية في المغرب.

وتوفي مولاي إسماعيل بعاصمة مكناس في 28 رجب 1139 بعد أن جلس على عرش المغرب 57 سنة، فإذا أضيف إليها مدة 7 سنين، كان نائباً فيها عن أخيه مولاي رشيد على ناحية الغرب كان الجميع 64 سنة وهي مدة لم يستوفها أحد من الملوك في الإسلام ما عدا المستنصر الفاطمي صاحب مصر فإنه أقام في الخلافة 60 سنة ولكن بينهما بون بعيد، فإن المستنصر ولي وهو ابن 7 سنين فكان في صدر دولته تحت الاستبداد ولا كذلك مولاي إسماعيل.

مولاي إسماعيل



تمثل هذه الصورة بطل العائلة
العلوية المالكة السلطان إسماعيل بن الشريف

سيدي محمد بن عبد الله

هو السلطان العظيم فخر الدولة العلوية أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إسماعيل، بويع بعد وفاة أبيه مولاي عبد الله في أواخر صفر 1171 وكان المغرب قد أجهده البلاء وأنهكته الحروب الداخلية التي نشبت بين أولاد السلطان مولاي إسماعيل طلباً للملك، فلما تولى سيدي محمد بن عبد الله أصفقت كلمة الأمة على طاعته لما كان ظهر منه أيام خلافته عن أبيه على مراكش من حسن السياسة وسداد التدبير.

ولذلك ما لبث أن ضرب على أيدي أهل الفساد ونشر الأمن في البلاد، وساح في مدن المغرب وثغوره جميعاً متفقداً أحوالها ومستصلحاً أمورها، فأحبَّته القلوب، وأخلصت له الجنوب، ورأى أن لا بد من إيجاد مداخيل ثابتة لخزينة الدولة، فأحدث بعض الضرائب واستخلص الأعشار على الواردات من الخارج، فانتعشت بسبب ذلك مالية الحكومة، ثم أنحى على حكام الجور ويطانات السوء فاستصفى منهم الأموال التي كانوا ابتزوها من الضعفاء وأضافها إلى خزينة الدولة، وبدأ يصرف المال حينئذٍ في وجوهه، ويستجد ما درس أو كاد من آثار عظمة المغرب.

فحصَّن الثغور والعواصم وشيد الأبراج الهائلة المشحونة بالمدافع والعساكر، وأنشأ السفن الحربية محيياً بذلك الأسطول المغربي الذي كان قضى عليه الإهمال منذ أجيال، وقد بلغ عدد

قطع أسطوله 50 قطعة ما بين كبيرة وصغيرة وعدد العساكر البحرية فقط 6,000 منها ألفان من المدفعية... فحدث أن قوة بحرية مغربية صادرت مركباً فرنسياً في مياه المغرب سنة 1178 وساقته إلى ثغر العرائش فهاجم الأسطول الفرنسي ثغري العرائش وسلا ورماهما من مدافعه بنار حامية ولكنه اضطر إلى الرجوع خائباً لما رمته حاميات الثغرين بضعف ما رماهما به وذلك من نتائج إحياء الأسطول والاهتمام ببحرية المغرب.

وبنى السلطان سيدي محمد بن عبد الله ثغر الصويرة سنة 1178 واعتنى به غاية الاعتناء لسلامة مرساه من الآفات، فكان بناؤه من حسن سياسته، إذ أبطل به حصن أكادر ومرساه الذي كان الثوار يتداولونه ويسرحون منه وسق السلع افتياتاً على الدولة، ثم في سنة 1183 حاصر ثغر الجديدة وكان لا يزال بيد البرتغال ولما ضاق الأمر بمن كانوا فيه طلبوا الأمان فأمنوا على أن يخلوا المدينة ولا يحملوا شيئاً معهم من المتاع فأخلوها ولغموا أرضها بالبارود مكيدة منهم للمسلمين، وباسترجاع هذا البلد المهم لم يبق من أرض المغرب بيد الأجانب إلا سبتة ومليلية، وهاتان المدينتان أنفسهما طالما والى المغرب حكومةً وشعباً هجماته عليهما، ولكنه لم يفز منهما بطائل، ولكل أجل كتاب.

ونظر سيدي محمد بن عبد الله في علاقاته مع الدول نظرة حكيمة، فعقد عدة معاهدات مع ملوك أوروبا وغيرها كلها في صالح المغرب حتى كان كثير من الدول الأوروبية يؤدون له إتاوات سنوية

في مقابل المرور بمياه المغرب، أما الدولة العثمانية فقد كان له معها شأن خاص إذ بنى سائر علاقاته معها على التأييد والنصرة لها فسالم من سالمها وحارب من حاربها، وقدم إليها مساعدات مهمة في كثير من الظروف الحرجة.

وكان لأجل تمتين الرابطة الإسلامية بينه وبين سائر أمراء البلاد الإسلامية لا يزال يواصلهم ويهاديهم وزوج كريمته من الشريف سرور صاحب مكة، وافتدى من الأسرى المسلمين مغاربة وغيرهم ممن كانوا بيد الإسبان أو غيرهم ما يناهز 50,000 أسير وهذه هي سياسة الجامعة الإسلامية التي لو جرى عليها ملوك المسلمين لرأوا من أمرهم عجباً.

وللسلطان سيدي محمد بن عبد الله آثار عمرانية كثيرة في غالب مدن المغرب، ويكفي منها مدينة الصويرة بمساجدها ومدارسها وحصونها وكل ما فيها، ومسجد السُنَّة بالرباط وعشرات المساجد والمدارس بغيره، وكان عالماً سلفياً مصلحاً ألف عدة كتب في السنة، وأدخل على برامج التعليم في القرويين إصلاحات مهمة وكان مجلسه حافلاً بأهل العلم والأدب، وهو ممدوح ابن الونان بقصيدته الشمقمقية المشهورة، وكانت وفاته رحمه الله في 24 رجب 1204 بالرباط.

سيدي محمد بن عبد اللّه





تمثل هاتان الصورتان
السلطان المصلح سيدي محمد بن عبد اللّه

مولاي الحسن

هو السلطان المقدس أبو علي الحسن بن محمد بن عبد الرحمن ولي بعد وفاة والده سنة 1290 وقد كان العتو والطغيان ضاربين أطنابهما في قبائل المغرب جميعاً، فتمكن بحكمته وحسن سياسته، من تأليف تلك القبائل وإعادتها إلى حظيرة الطاعة.

واجتهد في إصلاح البلاد والسير بها في طريق الرقي المادي والأدبي خصوصاً فيما تشتد إليه حاجة الدولة لحفظ استقلالها وضمان سلامتها، فأرسل فوجاً من الطلبة إلى أوروبا بقصد التخرج في فنون العلم المختلفة، وأسس معملاً كبيراً للسلاح بفاس، واقتنى مراكب بخارية كان يصح جعلها نواة لعمارة بحرية مهمة، وكان في علاقاته مع دول أوروبا دائم التيقظ والحذر لم يسلس قياده لواحدة منها على ما كان يبدينه من مزيد الوداد.

وكان لا يفتر من الجوس خلال المملكة، وفي هذه الفكرة السديدة ما لا يخفي من توطيد الأمن والاتصال بالرعية والاطلاع على رغائبها ولذلك كان لعامة الشعب تعلق كبير به وحب زائد فيه.

وكان عازماً على ربط أنحاء المملكة بخطوط السكة الحديدية وإنشاء التلغراف وغير ذلك، إلا أنه كان يريد أن ينشئ ذلك بأيدٍ مغربية وأموال مغربية، خيفة من تلاعب الأجانب وسيطرتهم على المغرب بواسطة هذه المشاريع.

وبالجملة فإن مولاي الحسن قد تسلم المغرب على حالة

من التضعضع والانحلال كاد يصير معها إلى الاضمحلال، فما زال يرأب من صدعه ويلم من شعثه حتى تحايى وانتعش، ولو قدر للمغرب بعده أن يسير في الطريق التي انتهجها له هذا السلطان المصلح لكان له اليوم شأن أي شأن، والله غالب على أمره، وتوفي مولاي الحسن في 3 حجة 1311.

مشاكل المغرب في هذا العهد

من الإنصاف القول بأن مشاكل المغرب بعضها يرجع إلى عهود سابقة وبعضها مما حدث في هذا العهد، فمثلاً احتلال الشواطئ بدأ في أواخر أيام المرينيين وبدأ معه ما يجره الاختلاط بالأجانب من فساد الأخلاق وخراب الذمم، وقد كافح الوطاسيون والسعديون ما كافحوا ولم يستطيعوا أن ينفذوا من ثغور المغرب ما أنقذه العلويون، ومع ذلك فقد بقيت سبتة ومليلية محتلتين تسجلان على المغرب الضعف في الميدان السياسي والحربي.

وكذلك تلاشى الأسطول المغربي الذي كان يقوم بخفر السواحل ويقيم للمغرب هيبة في نفوس الأعداء هو داء قديم اعترى المغرب وبسببه تمكن العدو من احتلال ما احتله من الشواطئ وعجز المغرب عن ممانعته، وبقي دفاعه قاصراً على الحصار البري.

ثم إن من أعظم المشاكل التي حدثت في هذا العهد مشكلة الامتيازات الأجنبية التي نشأت مع توالي الأيام بسبب كرم المغرب من جهة وجهل ساسته من جهة أخرى، فإنهم كانوا يبرمون مع الدول معاهدات تخولها كثيراً من الحقوق التي وإن كانت الدول في بعض الأحيان تخول مثلها للمغرب إلا أن المغرب لم يكن له جاليات في بلاد تلك الدول حتى تتمتع بتلك الحقوق. وزاد في الطين بلّة جور الحكام، فجعل بعض الرعية يتعلقون بنواب الدول لحمايتهم وبذلك تعطل نفوذ الأحكام. وبما أنه ليس لولاية العرش نظام بل الأمر باقٍ

على سياسة العصور البائدة وهي أن الملك قائم على التسلط والغلبة، فإن كثيراً من العامة فضلاً عن أفراد من البيت المالك كان الشيطان يسول لهم القيام على صاحب العرش، فيكثر الهرج وتعظم الفتنة، ولا يتمكن السلطان الشرعي من عمل أي شيء لصالح البلاد بل إنما تذهب أيامه سدى في مقاومة الثائرين وقص جناح المفسدين.

وكل هذا كان يخفى على الأجانب ويظنون أن المغرب امبراطورية عظيمة بقيت مدى قرون محافظة على استقلالها ولم تندمج ولا في السلطنة العثمانية التي انتظمت سائر بلاد الإسلام تقريباً فهم بذلك يهابون جانبه، فلما احتلت فرنسا بلاد الجزائر وعجز المغرب عن الدفاع عنها ثم اضطر لأجل الدفاع عن حدوده أن يشتبك معها في وقعة (أيسلى) المشؤومة سنة 1260 فعجز أيضاً عجزاً كليًّا وانهزم جيشه هزيمة شنعاء في أول ساعة اللقاء، انكشف حينئذٍ الغطاء، وبرح الخفاء، وظهر أن المغرب أصبح طعمة سائغة لمن أراد أن يتناوله من الدول.

ثم جاءت حرب تطوان أيضاً ضغثاً على إبالة، وسببها كذلك الخلاف على الحدود ما بين سبتة والمغرب، فتقدمت إسبانيا إلى المغرب بمطالب مجحفة، ولما لم يقبلها أعلنت الحرب عليه سنة 1276 فزحف الجيش الإسباني من سبتة إلى تطوان فاحتلها بكل سهولة، ثم صار يتقدم إلى الأمام فاضطر المغرب إلى طلب الصلح فكان ما أراد الإسبان من التسليم بمطالبهم في الحدود، ودفع المغرب غرامة حربية قدرها 20,000,000 من الريال الإسباني.

إلا أن هذا المبلغ على ضآلته بالنسبة لدولة عظيمة كالمغرب لم يكن في طوق المغرب دفعه بالمرة، فبقيت تطوان بيد الإسبان كضمانة لأداء الدين. وبعد نحو العامين تهيأ للمغرب 8 ملايين واقترض من إنكلترا مليونين فدفع النصف وأخلت الجيوش الإسبانية مدينة تطوان.

ثم جلس الموظفون الإسبان بجنب المغاربة في مراسي المغرب يستخلصون النصف من مداخيلها وفاءً لدينهم فلم يستتموه إلا بعد 25 سنة. وكانت هذه الصفعة أعظم ما مني به المغرب من الفضائح في هذا العهد.

ولما طمّ سيل الامتيازات الأجنبية وتفاحش أمر الحماية الشخصية طلب السلطان مولاي الحسن عقد مؤتمر دولي للنظر في هذه المشكلة وحلها حلاً مرضياً للجميع فانعقد مؤتمر مدريد سنة 1297 مثلت فيه جميع الدول ذات المصالح في المغرب وقررت فيه بعض القرارات الصالحة في تحديد الحماية إلا أنه لم يعمل بشيء من ذلك لانطواء الضمائر على الكيد للمغرب.

ثم عقد مؤتمر الجزيرة الخضراء بطلب من السلطان مولاي عبد العزيز رحمه الله 1324 وحضره مندوبو الدول المخلصة وكان نظره في مسألة الإصلاحات التي اقترحت فرنسا إدخالها على الإدارة والمالية في المغرب.

وقد أصفقت فيه كلمة الدول على المغرب وأعطت لفرنسا وإسبانيا حق الإشراف على كثير من المصالح المغربية البحت.

ووقعت حادثة قتل العامة للطبيب (موشان) بمراكش سنة 1325 فاحتلت فرنسا مدينة وجدة ثم احتلت هي وإسبانيا الدار البيضاء في نفس السنة بحجة حماية الأجانب، وهكذا أصبح المغرب على وشك الانهيار.

هنالك قامت حركة معارضة قوية للسلطان مولاي عبد العزيز فاضطر للتنازل عن العرش لأخيه مولاي عبد الحفيظ الذي كان خليفته على مراكش، وكان موصوفاً بالعلم والحزم، فتوجهت إليه الأنظار وبايعه الناس في رجب السنة، ولكنه لم يستطع أن يعمل شيئاً في هذه الظروف الحرجة.

ثم وقعت ثورة بني مطير، من القبائل المغربية القوية المراس، على السلطان، وهددوا عاصمة فاس، فاستعان السلطان بالجيش الفرنسي المرابط بالدار البيضاء، ودخل هذا الجيش فاسا سنة 1329 فلم يخرج منها بعد.

وبما أن إسبانيا كانت ترى نفسها قرينة فرنسا في العمل بالمغرب فإنها احتلت العرائش وتقدمت منها إلى القصر الكبير، وفي هذه الأثناء كانت فرنسا تعرض على السلطان عقداً للحماية تريد منه إمضاءه والسلطان يسوِّف ما استطاع التسويف.

ثم وقعت ثورة الجيش المغربي على رؤسائه بفاس فقتل منهم بعض الضباط ومثَّل بهم، وشاركت العامة الجيش في الاعتداء على بعض الأجانب وأعمال النهب والإفساد، فأمرت القيادة الفرنسية بضرب المدينة بالمدافع، ولما سكنت الهيعة طلبت من أهل المدينة تسليم ما بيدهم من السلاح، ثم ألقت القبض على كل من قامت حوله شبهة من شبان فاس وصناديدها فأعدمتهم، وهي مذبحة فاس

التاريخية التي أرغم السلطان بعدها على قبول الحماية وإمضاء عقدها في 11 ربيع الثاني 1330 ـ 30 مارس 1912.

بعد الحماية

خسر المغرب استقلاله لأول مرة في التاريخ منذ دخوله في الإسلام وأصبحت كلمته تبعاً لكلمة الدولة الحامية بعد أن كان صاحب الشأن ورب السلطان.

ومع أن مضمون الحماية هو المساعدة في تنظيم الإدارة والمالية والجيش وفتح الطريق أمام المغرب للتجدد والحياة المدنية مع الاحتفاظ بتقاليده الموروثة وعدم المساس بأي شيء من مقدساته كالدين وما إليه، فإن نواب الدولة الحامية (المقيمين العامين) لم يسلكوا هذا النهج اللاحب في تطبيق بنود الحماية بل تخطوه إلى الحكم المباشر وتركوا الحكومة المغربية شبه عاطلة، ثم اختصروها إلى أبعد حد فلم يبقوا لها إلا وزيرين اثنين.

وساعد هؤلاء النواب طغمة المعمرين بأموال المغرب وأراضيه الخصبة التي انتزعوها من أصحابها قهراً ففلحوها ودرت عليهم لبناً وعسلاً، وصاروا بعد الصعلكة ملوكاً على الأسرَّة يستخدمون المغاربة بدراهم معدودة.

ثم جاوزوا الحد فهيأوا مشروعاً يقضي بفصل القبائل البربرية من العائلة الإسلامية وأحكام الشرع الشريف وهو ما يُسمَّى بالظهير البربري الصادر بتاريخ 16 مايو 1930.

هنالك ثارت ثائرة المغاربة وقاموا عن بكرة أبيهم مستنكرين هذه الأعمال وطالبين إيقاف هذه التصرفات، وابتدأت المقاومة السياسية للحماية بعد أن انتهت المقاومة الحربية التي استمرت نحواً من عشرين عاماً في جميع قبائل المغرب، وتألفت أحزاب وطنية وقدمت مطالب شعبية وأخذت قضية المغرب بتردد صداها في عالم السياسة الدولي من جديد.

ومن مساوئ نظام الحماية أنه قسم المغرب إلى قسمين فمنه ما هو تحت النفوذ الفرنسي ويسمى بالمنطقة السلطانية وهو القسم الأكبر من المغرب، ومنه ما هو تحت النفوذ الإسباني ويسمى بالمنطقة الخليفية، لأن المصلحة السياسية اقتضت أن يقيم جلالة السلطان خليفة عنه في هذا القسم، حرصاً على الوحدة المغربية، خصوصاً وهذا الخليفة هو من الأسرة المالكة.

وعلى كل حال فإن المغرب تقدم في هذا العهد من الناحية المادية تقدماً محسوساً، أما الناحية المعنوية فإنه لا يزال فيها خالفاً جداً، يكفيك أن تعلم أن المنطقة السلطانية على غناها وسعتها ليس بها إلى الآن إلا ثلاث مدارس ثانوية وليس بها كلية واحدة لأي علم من العلوم عدا كلية القرويين الدينية، وعلى هذا فقس.

إنما الأمل كل الأمل في همة جلالة الملك الذي يتزعم الآن حركة الإصلاح في المغرب، ويقود الفئة العاملة لخير الدين والوطن، وفي شهامة ابن عمه وخليفته في القسم الثاني من المغرب، الذي يتوقد حمية، وإخلاصاً للمغرب والجالس على عرشه.



جلالة السلطان المرحوم مولاي يوسف بن الحسن

جلالة ملك العصر سيدي
محمد بن يوسف أطال الله بقاءه

ولد سنة 1329 وجلس على العرش بعد وفاة والده مولاي يوسف في 23 جمادى الأولى 1346. ومن جلائل أعماله في الناحية العلمية اهتمامه بأمر جامعة القرويين العامرة وتنظيمه للدراسة بها تنظيماً يكفل توقلها في مدارج الكمال، فبعد أن خيَّم عليها الخمول نفخ فيها من روحه القوية فانبعثت من جديد تؤدي رسالتها الخالدة في دائرة العروبة والإسلام.

ومنها تنظيمه لخزانة القرويين وتحبيسه عليها الكتب المفيدة وتهيئتها ليستفيد منها العام والخاص، وكانت قد اندثرت أو كادت وكذا عمل في مراكش بالنسبة إلى كلية ابن يوسف وخزانتها، ومنها تأسيسه للمدرسة المحمدية الثانوية بمراكش، ومنها تأسيسه للمعهد المولوي بالرباط حيث يدرس سمو ولي عهده وإخوته الكرام، ومنها تأسيسه لعدة مدارس قرآنية بفاس وغيرها، ومنها في الناحية الدينية بناؤه أو تجديده لعدة مساجد في جميع أنحاء المغرب ولا كالمسجد المحمدي الأعظم بالدار البيضاء، فإن هذا المسجد سيبقى درة في تاج جلالته تخطف بلمعانها الأبصار، ومنها قضاؤه على بدع وعوائد الطوائف الضالة من أتباع الشيخ سيدي محمد بن عيسى والشيخ سيدي علي بن حمدوش وغيرهم، فإنهم كانوا يقيمون مواسم سنوية يأتون فيها من أنواع المنكر والتدجيل بما يسود وجه المغرب بل

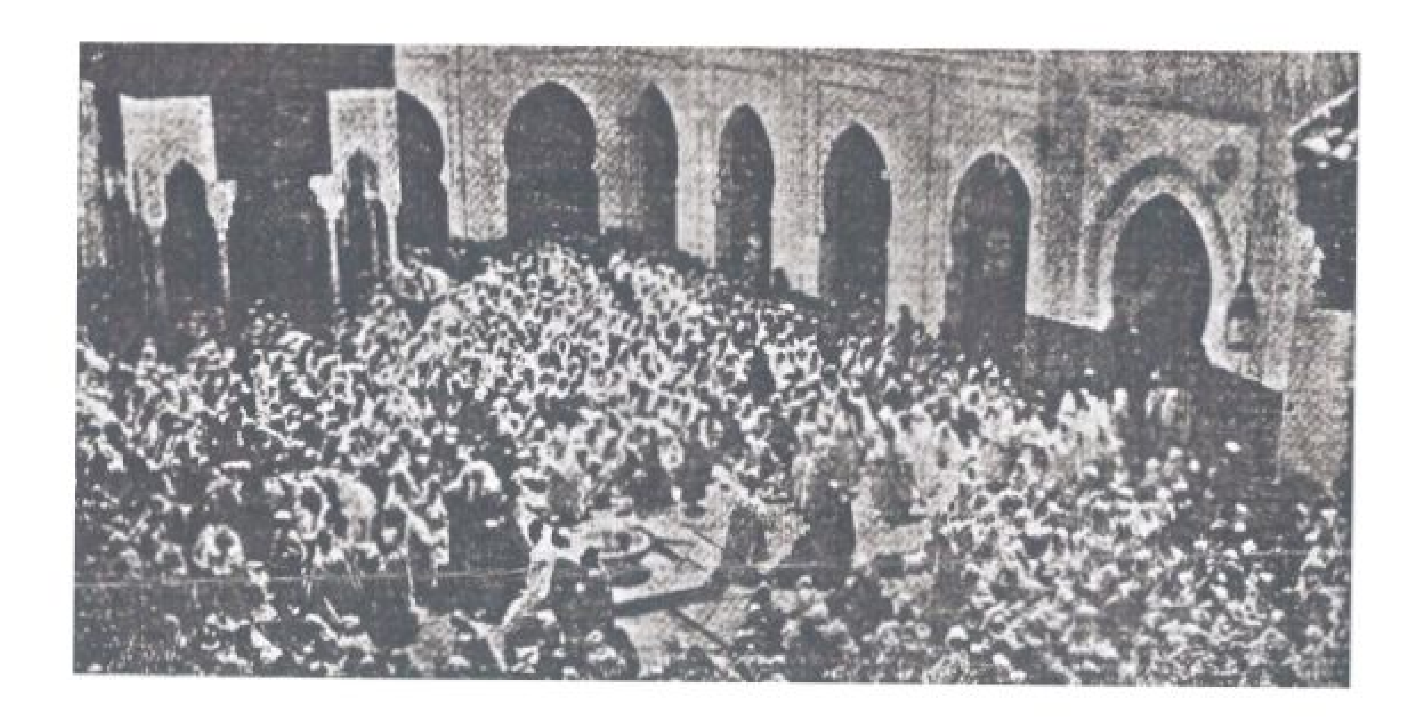
الإسلام، فأصدر أمره المطاع بمنع تلك المظاهر البشيعة، والاقتصار على ما ثبت عن أولئك المشايخ من الأوراد والأذكار.

ومنها إحياؤه لسنة صلاة الاستسقاء وكانت قد أميتت منذ عصور، ومنها منعه للهيئة المنكرة التي كان يُسَلم بها على الملوك من مباشرة الأرض بالوجه واليدين على صفة سجود الصلاة.

ومنها في الناحية السياسية معارضته لمشروع السياسة البربرية بحيث لم يمضِ ظهيراً من الظهائر الصادرة بشأنها، ومنها احتجاجه الرسمي الذي قدمه إلى الحكومة الفرنسية بباريس سنة 1934 لما أسست وزارة فرنسا ما وراء البحار وجعلت المغرب من مشمول نظرها. وأن قيمة هذا الاحتجاج في ذلك الظرف الدقيق لا يقدرها إلا من كان مطلعاً على مجريات الأحوال بالمغرب حينذاك. إلى غير هذا مما لو تتبعناه لاحتجنا إلى أفراده بالتأليف، أبقى الله جلالته حامياً للدين والوطن، وحفظ الأمة فيه وفي أنجاله الكرام.



جلالة الملك المنصور بالله سيدي محمد بن يوسف



جامع السلطان سيدي محمد بن يوسف
بالدار البيضاء ساعة افتتاحه الرسمي وترى
جماهير المسلمين مزدحمة في صحنه الواسع الأرجاء

صاحب السمو
الخليفة المعظم مولاي
الحسن بن المهدي حفظه الله

استخلفه جلالة السلطان بعد وفاة والده مولاي المهدي بنحو العامين سنة 1344.

ولقد ظفرت هذه المنطقة منه بأعظم ممثل للعرش المغربي وأكبر محام عن حقوق المغاربة.

وفي أيامه حصل استقلال العدلية الإسلامية عن المراقبة الإسبانية وحصل كذلك استقلال الأحباس.

ووجدت نهضة علمية مباركة ما زال سموه يمدها بمساعداته المادية والأدبية في كل حين.

وأوفدت إلى مصر بعثة علمية تتشرف بحمل اسمه وهي مكونة من نحو 50 طالباً.

وأسس في مصر بيت المغرب حيث تستقر البعثة المذكورة، وبه قسم للتبادل الثقافي بين مصر والمغرب.

والأمل في منشآته الجديدة النافعة أوسع من هذا، أدام الله له العز والرعاية آمين.

* * *



صاحب السمو المعظم مولاي الحسن بن المهدي

أيها النشء المغربي! قد عرفت الآن تاريخ بلادك ووقفت على مواضع العبرة فيه، ورأيت كيف كانت فيما مضى امبراطورية واسعة الأطراف مسموعة الكلمة ذات قوة وحضارة وكيان سياسي متين.

كما رأيت أنها بعد أن توالت عليها ضربات الدهر في مختلف العصور لم تهن ولم تستسلم. بل كافحت وجاهدت مثبتة وجودها معلنة عن نفسها أنها لا تضمحل ولا تنعدم، فسر ـ رعاك الله ـ على هذا السَّنن واعمل كما عمل أسلافك، ولا تيأس ولا تبتئس فإن الله وعد بنصر المؤمنين وجعل العقبى للصابرين.

لا تيأسن وإن طالت مطالبة إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

ـ أسئلة ـ

1) من أين كان قدوم الأشراف العلويين وفي أي محل استقروا؟

2) كيف كان المغرب عند قيام دولتهم؟

3) من هو أول ملك منهم؟

4) ما هي أعماله ومتى توفي؟

5) ما هي صفات مولاي إسماعيل؟

6) ما هي فتوحه؟

7) إلى أين بلغت دولته جنوباً؟

8) كم بلغ عسكره من العبيد فقط؟

9) ما الذي فعله للضرب على أيدي المفسدين؟

10) ما هي آثاره العمرانية بمكناس؟

11) متى توفي وكم كانت مدة حكمه؟

12) متى تولى سيدي محمد بن عبد الله؟

13) ما هي صفاته؟

14) ما الذي عمله لإنعاش مالية المغرب؟

15) ما هي أعماله لإحياء البحرية المغربية وما كانت نتيجة ذلك؟

16) ماذا فتحه من البلاد؟

17) كيف كانت علاقاته مع الدول؟

18) ما هي آثاره العمرانية والعلمية؟

19) متى توفي؟

20) متى تولى مولاي الحسن؟

21) كيف وجد المغرب وماذا عمل لإصلاحه؟

22) لماذا كان يحذر من الأجانب؟

23) متى توفي؟

24) اذكر مشاكل المغرب في هذا العهد؟

25) بين عماذا نشأت الامتيازات الأجنبية؟

26) اذكر سبب وجود الحماية الشخصية؟

27) ماذا كشفت عنه وقعة إيسلي؟

28) عماذا نشأت حرب تطوان وما جنى المغرب منها؟

29) لماذا عقد مؤتمر مدريد وهل استفاد المغرب من مقرراته؟

30) ماذا كانت نتيجة مؤتمر الجزيرة الخضراء؟

31) لماذا وقع احتلال وجدة ثم الدار البيضاء؟

32) هل تمكن مولاي عبد الحفيظ من إنقاذ الموقف؟

33) ماذا وقع بعد من الحوادث التي عجلت بالحماية؟

34) اذكر تاريخ الحماية؟

35) هل طبق نواب الدولة الحامية عقد الحماية كما يجب؟

36) ماذا كانت نتيجة تصرفات نواب الحماية الجائرة؟

37) اذكر تاريخ ولادة جلالة الملك وتاريخ جلوسه؟

38) اذكر أعماله الجليلة في الناحية العلمية... الدينية... السياسية؟

39) اذكر تاريخ استخلاف مولاي الحسن بن المهدي؟

40) اذكر مآثره وأعماله المهمة؟

41) رأيت ما قام به أسلافك من الخدمات الجليلة للمغرب فاذكر ما أنت صانع في هذا الصدد؟

فهرس الكتاب

ظهر للمؤلف

كتاب النبوغ المغربي في الأدب العربي

شرح الشمقمقية

أدب الفقهاء

التعاشيب

ذكريات مشاهير رجال المغرب